منشورات مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس
سلسلة البحوث والدراسات
38

صورة من حياة ونضال الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس

قدس الله روحه

بقلم تلميذه الأستاذ الشيخ:
محمد بن أحمد يكن المنصوري الغسيري
رحمه الله

تقديم وتعليق:
أ. د.مسعود بن موسى فلوسي

دار الهدى

صورة من حياة ونضال

الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير

الشيخ عبد الحميد بن باديس

قدس الله روحه

منشورات مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس
سلسلة البحوث والدراسات
38

صورة من حياة ونضال
الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير
الشيخ عبد الحميد بن باديس

قدس الله روحه

بقلم تلميذه الأستاذ الشيخ:
محمد بن أحمد يكن المنصوري الغسيري
رحمه الله

تقديم وتعليق:
أ.د. مسعود بن موسى فلوسي

دار الهدى

منشورات مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس
سلسلة البحوث والدراسات 38
المدير الشرفي للسلسلة: د. عبد العزيز فيلالي
مسؤول السلسلة: د. علاوة عمارة

عنوان الكتاب: صورة من حياة وبطال
الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير
الشيخ عبد الحميد بن باديس

اسم المؤلف: محمد بن أحمد بن يكن المنصوري الغسيري

الحجم: 15.5 x 23.5

عدد الصفحات: 144

منشورات دار الهدى، 2018

ISBN: 978 - 9974 - 76 - 036 - 9

الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2018

جميع الحقوق محفوظة

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة – الجزائر
الهاتف: 032. 50. 63. 60 // 032. 50. 63. 59
الفاكس: 032. 50. 63. 61

للتواصل معنا

darelhouda@yahoo.fr
www.darelhouda.com
facebook.com/darelhoudalg
twitter.com/darelhoudalg

تطلب جميع كتبنا من الفروع التالية

الجزائر

- 01 شارع أوراس بشير باب الواد
  الهاتف : 021.96.23.40
  021.96.97.20
  الفاكس : 021.96.61.11
- 02 شارع أحمد محند الحراش
  تلفاكس : 021.83.13.07

عين مليلة

- طريق باتنة
  الهاتف: 05.42.32.70.37
  الفاكس : 032.50.72.00
- الحي البلدي
  الهاتف : 032.50.78.93
  الفاكس : 032.50.72.00

قسنطينة

- حي كوحيل لخضر جنان الزيتون
  الهاتف : 031.92.22.08
  الفاكس : 031.92.27.08

وهران

- 09 نهج الدكتور بن زرجب
  الهاتف : 041.36.30.32
  الفاكس : 041.36.30.34

تمنراست

- حي الحفرة بالقسم 219
  الهاتف : 029.34.76.24
  029.32.26.28

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوب وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر

"يموت العظماء فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية في الأرض: قوة تحرك، ورابطة تجمع، ونورا يهدي، وعطرا ينعش. وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو معنى كون العظمة خلودا".

الإمام محمد البشير الإبراهيمي

تقديم وتعريف بالكتاب والمؤلف

أربع وأربعون سنة مرت على رحيل مؤلف هذا الكتاب الأستاذ الأديب والدبلوماسي الفذ الشيخ محمد بن أحمد يكن المنصوري الغسيري، رحمه الله وطيب ثراه. ومع ذلك فقد ظل هذا الكتاب، الذي كان آخر ما كتب رحمه الله، ظل على حاله الأولى التي كُتب عليها، بين أيدي أفراد أسرته، ولم يتيسر طبعه ونشره.

ولقد يعجب المرء من طول هذه المدة، رغم أن إمكانيات النشر صارت متوفرة، ووسائل الطباعة قد شهدت تطورا كبيرا، كما أن دور النشر المختلفة في داخل الجزائر أو خارجها لا يُتصور أن تتردد في نشر مثل هذا الأثر النفيس.

ولكنه قَدَرُ الله، ولا راد لقضائه، ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، أراد لهذا الكتاب أن يظل بعيدا عن متناول أيدي الباحثين والدارسين والقارئين، رغم أن كثيرين من معارف الأستاذ المؤلف رحمه الله وزملائه وتلاميذه كانوا وما زالوا على علم بتأليفه لهذا الكتاب.

وقد كنت سمعت كثيرا عن هذا الأثر العلمي، وتشوفت نفسي إلى الاطلاع عليه، وسألت من أعرف عن السبيل إلى الحصول عليه، فقيل لي أكثر من مرة: إن سبيل الوصول إليه تكاد تكون مسدودة، فالشيخ رحمه الله قد توفي في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، وولده الوحيد أحمد، الذي كان دبلوماسيا وسفيرا للجزائر في إحدى دول إفريقيا، قد توفي هو الآخر رحمه الله، وبنتاه متزوجتان وتعيشان بعيدا عن الجزائر، ولذلك فلا داعي لأن ترهق نفسك فيما لا طائل من ورائه.

وكدت أفقد الأمل في الحصول على هذا الكتاب، وإذا بربي سبحانه وتعالى يسوق الفرصة المناسبة، ويهيئ الظروف المواتية للحصول على الكتاب دون أدنى جهد يُذكر، فقد نظمت جمعية الشيخ محمد الغسيري في بلدية غسيرة بولاية باتنة، يوم 24 جويلية 2006 م، وبمناسبة الذكرى الثانية والثلاثين لوفاة الشيخ رحمه الله،

حفلا كبيرا بمتوسطة تفلفال في بلدية غسيرة، رعاه السيد عبد العزيز بلخادم رئيس الحكومة آنذاك وأشرف عليه السيد والي الولاية، وحضره عدد من معارف الشيخ وزملائه، كما حضرت ابنته السيدة بسيمة حرم الأستاذ عبد الحفيظ بشير. وكان لي شرف الحضور ومتابعة الحفل رفقة عدد كبير من المدعوين من أبناء بلدية غسيرة وغيرهم، وسمعنا عدة شهادات زادتنا معرفة بقدر المؤلف وإدراكا للمكانة الرفيعة التي كان يحتلها في الساحة الفكرية والسياسية الجزائرية.

وبعد أيام قليلة من ذلك الحفل، دعاني الحاج عبد الكريم قرفي صاحب مكتبة النهضة الجديدة بباتنة وعضو مكتب جمعية الشيخ محمد الغسيري، إلى حضور لقاءٍ لأعضاء مكتب الجمعية مع السيدة بسيمة ابنة الشيخ الغسيري وزوجها الأستاذ عبد الحفيظ بشير. ولبيت الدعوة وحضرت اللقاء، وتشعب الحديث حول مسائل مختلفة تتعلق بحياة الشيخ رحمه الله، وفي أثناء الحديث طرحتُ السؤال حول كتاب الشيخ عن أستاذه الإمام عبدا لحميد بن باديس، فقالت السيدة بسيمة: هو ذا قد أحضرته معي. فأخذتُ الكتاب وتصفحتُه فوجدته مكتوبا على الآلة الكاتبة وعليه تصحيحات بخط الشيخ، فتساءلتُ عن إمكانية الحصول على نسخة منه للعمل على طبعها ونشرها ليأخذ الكتاب مكانه في المكتبة الجزائرية وهو جدير بها، فقالت مرة أخرى: لقد أحضرت معي نسخة مصورة منه لتسليمها إلى الجمعية. فسارعتُ إلى إعلان استعدادي لتولي تصفيف الكتاب على الكمبيوتر والتعليق عليه والتقديم له وخدمته بما يلزم وتهيئته للنشر، فوافق رئيسُ وأعضاءُ الجمعية والسيدة باسمة وزوجها دون تردد.

أخذت الكتاب معي، ومن الغد مباشرة سارعت إلى بداية العمل في تصفيفه، وما هي إلا أيام قليلة حتى انتهيت من كتابته.

ومع أني لاحظت أن الكتاب قد توقف عند مرحلة معينة من حياة الشيخ ابن باديس لم يتعدَّها، إلا أني لاحظت أن المؤلف لم يضع في الصفحة الأخيرة

(60) علامة التبعية (.../ ...) كما فعل في كل الصفحات التي قبلها، فتأكدت أن الأمر لا يتعلق بسقوط قسم من الكتاب وإنما المؤلف هو الذي توقف عند هذا الحد، ربما على أمل العودة إلى الكتابة في الموضوعفيما بعد، خاصة وأن الرجل كان مشغولا بالعمل الدبلوماسي سفيرا في الكويت، لكن الأجل كان أسرع فوافى المؤلفَ قبل مواصلة الكتابة.

لأجل ذلك قررت الاستمرار في العمل في الكتاب، وتهيئته للنشر، فما لا يدرك كُلُّه لا يُترك جُلُّه، ويمكن أن أحدد عملي فيه في النقاط الاتية:

1ـ قسمت الكتاب إلى موضوعات رئيسة وموضوعات فرعية منضوية تحتها، علما أن المؤلف رحمه الله قد أورد الموضوعات كلَّها متتابعة كنص واحد متسلسل دون تحديد للموضوعات الرئيسة والفرعية.

2ـ أدخلت في سياق النص بعض العناوين الرئيسة أو الفرعية التي رأيتها ضرورية ووضعتها بين قوسين مربعين [] إشارة إلى أنها ليست من وضع المؤلف رحمه الله.

3ـ خرَّجت الآيات القرآنية مشكولةً وحددتُ مواضعَها من القرآن الكريم، وفعلتُ مثلَ ذلك مع الأحاديث النبوية الشريفة.

4ـ حاولتُ قدر الإمكان أن أُعَرِّفَ في هوامش الصفحات ببعض الأعلام الذين أورد المؤلف أسماءهم في سياق الكتاب، حتى يعرف القارئ شيئا عن حياة وأعمال هؤلاء الأعلام.

5ـ أضفت إلى الكتاب مقالتين مخطوطتين حظيت بالحصول على صورة واضحة منهما من مركز الأرشيف بولاية قسنطينة: المقالة الأولى كتبها المؤلف مباشرة بعد وفاة ابن باديس بأيام قليلة، والثانية كتبها بمناسبة الاحتفال بالذكرى الرابعة لوفاة ابن باديس رحمه الله، وعلى الرغم من أن المقالتين لم يعنونهما المؤلف، إلا أني اجتهدت في عنونة الأولى بـ (إلى الرفيق الأعلى)، والثانية بـ (في الذكرى

الرابعة لوفاة ابن باديس). كما ألحقت بالكتاب مقالة ثالثة سبق للغسيري أن نشرها في جريدة (البصائر) بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاة ابن باديس. والمقالات الثلاث هي التي يجدها القارئ في نهاية الكتاب الذي بين يديه.

6ـ اجتهدت قدر ما استطعت في تخريج النصوص التي نقلها المؤلف وإحالتها إلى مصادرها الأصلية.

7ـ صححت ما تبين لي من أخطاء مطبعية في النص الأصلي المرقون على الآلة الكاتبة.

8ـ وضعت هذه المقدمة التي رأيتها ضرورية لتعريف القارئ بالكتاب ومؤلفه رحمه الله.

هذا، وقد صدرت طبعة تمهيدية من هذا الكتاب أوائل سنة 2007م، ولكن نسخها لم تُوزع إلا في ولايتي باتنة وبسكرة، ولم يصل منها شيء إلى بقية ولايات الوطن، وقد آن الأوان لأن يأخذ هذا الكتاب مكانته ضمن التراث الثقافي الجزائري من خلال طبعة وطنية تنتشر نسخها في ماطق الوطن كلها، وهذا ما نرجو أن تقوم به مؤسسة جسور التي عهدنا إليها بطبع الكتاب.

في ختام هذه المقدمة؛ لا يسعني إلا أن أشكر السيدة بسيمة يكن وزوجها الأستاذ عبد الحفيظ بشير، وكذا رئيس وأعضاء جمعية الشيخ الغسيري. كما أسدي شكري أيضا إلى أخي الكبير الحاج رشيد فلوسي على ما قدم لي من عون وما أعانني به من تشجيع، وإلى كل من السيدة رئيسة مركز أرشيف ولاية قسنطينة والأخوين أحمد ومحمد العاملين معها.

كما أشكر مؤسسة الإمام ابن باديس التي تتولى نشر الكتاب وإتاحته للقراء.

سائلا الله العلي القدير أن يجزل للجميع موفور الأجر والثواب.

تعريف موجز بمؤلف الكتاب
الأديب الدبلوماسي الأستاذ الشيخ محمد
بن أحمد يكن الغسيري

من هو الغسيري؟

هو محمد بن أحمد يكن المنصوري الغسيري، ينتمي إلى عرش أولاد منصور، أحد أعراش منطقة غسيرة، التابعة حاليا لدائرة تكوت بولاية باتنة، وهي منطقة تجمع عدة قرى هي: تفلفال، أريناش، أولاد عابد، غوفي، كاف لعروس. وأولاد منصور يقتسمون مع أولاد يحيى قرية كاف لعروس الحالية.

وقبل أن تنشأ القرى الحالية، كان سكان غسيرة يعيشون على ضفتي الوادي الأبيض، وهو واد يبدأ من أريس وينتهي عند سيدي عقبة، وهذا الوادي كان دائم الجريان، وتجتمع مياهه من الأمطار والثلوج التي تهطل عادة على المنطقة، إضافة إلى المنابع المائية الكثيرة التي تلتقي مياهها لتصب في مجرى هذا الوادي.

وقد نشأت على ضفتي الوادي بساتين جمعت أصنافا مختلفة من الأشجار، لكن الصنف الغالب هو النخيل. وكان سكان المنطقة يعتمدون في غالب قوتهم على التمر، وهو وسيلتهم إلى شراء غيره من الحاجيات حيث يستبدلونه بغيره مما يحتاجون إليه. ولذلك كان غالب عمل أهل المنطقة في هذه البساتين، باعتبارها المصدر الوحيد لرزق بالنسبة لهم.

في هذه البيئة، ولد محمد يكن الغسيري، لأب هو أحمد بن محمد وأم هي أم الخير بنت أحمد يكن، وكان مولده في سنة 1915م، لكنه لم يسجل في سجلات الحالة المدنية بأريس إلا في سنة 1919م.

النشأة والتكوين:

عندما بلغ السابعة من عمره، أي سنة 1922، أُدْخِلَ الكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، فتلقى تعليمه القرآني على أيدي عدد من المشايخ في بلدته، منهم: خلاف ورياشي، أحمد بن مخلوف بولطيف، حمودة حمودة.

وفي شهر ماي من سنة 1927 التحق بزاوية الشيخ أحمد بن الصادق التي كانت قائمة في أولاد ميمون في الطرف الجنوبي من قرية غوفي. وفي هذه الزاوية أتم حفظ القرآن الكريم في أربع سنوات، حيث انتهى من حفظه حفظا جيدا سنة 1931.

شد الرحال بعد ذلك إلى بسكرة، أين التحق بزاوية الشيخ محمد الصغير الجوادي، ثم انخرط سنة 1932 في صف تلاميذ مدرسة الإخاء للشيخ محمد خير الدين التي كانت قد تأسست في تلك السنة، وهناك تلقى العلم على عدد من معلميها، منهم: الشيخ الطرابلسي الميزابي، الشيخ محمد خير الدين، الشيخ عمر البسكري، الشيخ بلقاسم الغسيري، وغيرهم من أفاضل العلماء. وكان يقيم في زاوية سيدي الجوادي مع الطلبة الجوالة فترة، ثم تكفل به رجل صالح محب للعلم وأهله، مقابل أن يتولى الغسيري تحفيظ القرآن الكريم لابنيه وابن أخيه.

لكن مقام الغسيري في هذه المدرسة لم يطل، بسبب توقف الدراسة بها نتيجة المشاحنات الانتخابية والخصومات التي كانت قائمة في ذلك الحين.

مع الإمام ابن باديس:

التحق بقسنطينة سنة 1933، رفقة زميله مسعود صحراوي، حاملا معه توصية خاصة من الشيخ محمد خير الدين، وعندما دخل على الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس في مقصورته وطلب منه السماح له بالجلوس بين يديه وأخذ العلم عنه، وافق الإمام على طلبه، ومنذ ذلك الحين لم يفارق الغسيري شيخه حتى وفاة هذا الأخير، حيث درس على يديه علوم الشريعة واللغة العربية، واقتبس من أدبه كما أخذ من علمه. كما درس أيضا على غيره من الأساتذة الذين كانوا يعينونه في إلقاء الدروس على الطلبة.

وقد كان الإمام عبد الحميد بن باديس، إلى جانب تعليم طلبته مبادئ العلوم العربية والإسلامية، حريصا على تدريبهم على الخطابة والكتابة والتدريس، حتى إذا حصلوا العلم صاروا متهيئين لتبليغه بعد ذلك بسهولة. وكان يكلف قدامى تلاميذه بتدريب زملائهم الجدد.

ومما يرويه الأستاذ محمد الحسن فضلاء رحمه الله في هذا الصدد؛ أنه في نفس السنة التي التحق فيها الغسيري بقسنطينة، أي سنة 1933، كان الأستاذ الفضيل الورتلاني أحد عرفاء الطلبة قد سن سنة حميدة بتوجيه من الإمام ابن باديس، وهي جمع طلبة الجامع الأخضر مرة في كل أسبوع في مكان أسموه (المأوى)، وهو عبارة عن مرأب كبير استؤجر لفائدة الطلبة، فكانوا يتدربون فيه على فنون الخطابة والحديث، وذات مرة فاجأ الأستاذ الفضيل الطالب الجديد محمد الغسيري وطلب منه أن يقف ليلقي خطبة، فارتبك الغسيري ووقف يرتعد من الخجل لا يدري ما يقول، وسكت وطال صمته، ثم قال له الأستاذ الفضيل: تكلم عنك، اذكر اسمك وبلدك وأين تعلمت، ولماذا جئت إلى هنا؟ فقال: أنا محمد المنصوري الغسيري، ولدت بغسيرة، حفظت القرآن الكريم، وتعلمت في مدرسة الإخاء ببسكرة، وجئت إلى قسنطينة لأتحصل على العلم والمعرفة لدى الأستاذ عبد الحميد بن باديس، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كانت هذه المفاجأة المربكة سببا لأن ينطلق لسان الغسيري بعد ذلك ويصدح بالخطب البليغة والأحاديث الممتعة، ويبوئ صاحبه مكانة الخطيب المِصْقَع بين خطباء جمعية العلماء.

انخراطه في النشاط الوطني:

خلال مرحلة طلبه للعلم على يدي الإمام عبد الحميد بن باديس، تفتح وعيه الوطني، وأدرك خطورة الاستعمار على وطنه وبني قومه، ولذلك حرص على القيام بعمل من شأنه أن يخدم وطنه من خلاله، فكان أن أسس بقسنطينة في ربيع

سنة 1934، رفقة عدد من زملائه منهم أحمد بن ذياب ومحمد الصالح رمضان وعلي شطاب وبلقاسم الزياني، خلية سرية ثورية. وكانت هذه الخلية تجتمع بعد صلاة العصر في مصلى الجامع الأخضر، بعد أن ينصرف المصلون. وقد روى الأستاذ أحمد بن ذياب رحمه الله أن الإمام ابن باديس كان يقول له ولزملائه في هذه الخلية: لو أني دعوتكم لثورة أأنتم مستمعون؟ فيقولون جميعا بصوت واحد: نعم.

كما أسس الغسيري رفقة عدد من زملائه الأوراسيين، منهم عمر دردور وأحمد السرحاني وبوزيد قارش، الخلية الأوراسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان لهذه الخلية نشاط اجتماعي وسياسي أقلق الاستعمار وأذنابه في المنطقة.

عمله في التربية والتعليم:

بعد أربع سنوات من الدراسة، تخرج الغسيري على يدي الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان يمكن أن يلتحق بالزيتونة لإتمام الدراسة العليا بها كما كانت عادة الطلاب في تلك المرحلة، إلا أنه يبدو أن جمعية العلماء لاحظت نبوغه والإمكانات العلمية والأدبية والأخلاقية التي يتوفر عليها، فقررت الاستفادة منه، وعينته سنة 1937 معلما بمدرسة باتنة، هذه المدرسة التي علم بها خلال أشهر صيف تلك السنة، لكنه سرعان ما غادرها عائدا إلى قسنطينة أين عين معلما في مدرسة التربية والتعليم بها، رفقة عدد من زملائه ومنهم: محمد العابد الجلالي، وعبد الحفيظ الجنان، والسعيد حافظ، ومحمد الصالح رمضان.

وفي هذه المدرسة كان له نشاط حثيث، وعناية بتدريس عدد من المواد للطلبة من الذكور والإناث، ومن بين المواد التي درسها: النحو والصرف، الإملاء والإنشاء، فقه العبادات، السيرة النبوية، تاريخ الخلفاء الراشدين، وغيرها من المواد اللغوية والشرعية.

نشاطه في إطار الكشافة:

إضافة إلى نشاطه في التربية والتعليم، انخرط الغسيري في صفوف الكشافة الإسلامية الجزائرية، وكان مرشدا لفوج (الإقبال) بقسنطينة لبضع سنوات قبل الحرب العالمية الثانية. وبعد استشهاد السيد محمد بوراس مؤسس الكشافة وانقسام الحركة الكشفية إلى جامعتين، تولى الغسيري قيادة إحداهما، إضافة إلى عضويته في القيادة العامة على مستوى العاصمة، وكان يشارك في مخيماتها وملتقياتها وتجمعاتها، ويسهم في تمثيلها في مختلف التظاهرات.

وقد كتب عدة نصوص لفائدة الكشافة، منها: التقرير الديني والأخلاقي الذي كلف بإعداده من قبل السيد محمد فارس القائد العمالي للكشافة لعمالة قسنطينة سنة 1943م، وكذا لائحة المرشدين المقدمة للقيادة العليا للكشافة الإسلامية الجزائرية في مخيم تلمسان سنة 1944، وغيرها.

تعرضه للاضطهاد:

لم يكن نشاط الغسيري الدائب وعمله المستمر ليخفى على الدوائر الاستعمارية التي كانت ترصد كل نشاط وطني وتتحين الفرص للانقضاض على أصحابه، لذلك ما إن وقعت حوادث 8 ماي 1945، حتى سارعت القوات الاستعمارية إلى اعتقال قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسهم الإمام محمد البشير الإبراهيمي. كما اعتقلت نشطاء الجمعية ومنهم الغسيري، الذي تم اعتقاله وإيداعه السجن المدني بقسنطينة يوم 16 ماي 1945، ثم نقل منه إلى سجن الحراش، ومنه إلى معتقل جنين بورزق جنوب وهران بين بشار وعين الصفراء، وبعد إغلاق هذا المعتقل نقل إلى معتقل المشرية، الذي ظل به إلى غاية 27 مارس 1946، حيث صدر العفو بحقه وتم إطلاق سراحه، ليعود إلى مواصلة مهمته في ميدان التربية والتعليم.

عضويته في لجنة التعليم العليا:

وعندما أنشأت جمعيةُ العلماء المسلمين الجزائريين لجنةَ التعليم العليا، سنة 1946، أوكلت رئاستها إلى الأستاذ إسماعيل العربي، وعينت الأستاذ محمد الغسيري ضمن أعضائها، رفقة كل من المشايخ: محمد الصالح رمضان، عبد القادر الياجوري، أحمد حماني، الصادق حماني، عبد الحفيظ الجنان، علي مرحوم، العباس بن الشيخ الحسين، أحمد بن ذياب، رحمهم الله جميعا. وقد قامت هذه اللجنة بدور بارز في توحيد التعليم وتطوير مدارس جمعية العلماء وإعطائها البعد المنهجي والتربوي والعلمي الذي رفع مستواها إلى أعلى المراتب.

كما اختير الغسيري كذلك لعضوية اللجنة الفرعية التي أُوكِل إليها وضعُ منهاج التعليم في المدارس العربية الحرة، وقد أعد في إطار أعمال هذه اللجنة: (خلاصة الدروس الفقهية)، التي وُزعت على جميع المدارس الحرة ووضعت موضع التطبيق العملي فيها.

وفي السنة نفسها (1946)، تم تعيينه كأول مفتش عام لمدارس جمعية العلماء على مستوى الوطن، وظل يؤدي هذه المهمة بكفاءة واقتدار إلى غاية سنة 1949.

تعين بعد ذلك مديرا لمدرسة باردو بقسنطينة في السنة الدراسية (1949 ـ 1950)، وفي السنة الموالية لها (1950 ـ 1951) مديرا لمدرسة الإرشاد بسكيكدة، والتي ظل بها إلى أوائل سنة 1956 حيث عاد إلى قسنطينة، مستأنفا من جديد مهمته في التفتيش.

جوانب أخرى من نشاطه:

لم يكن نشاط الغسيري مقصورا على العمل الإداري والتربوي بعيدا عما كانت تموج به الساحة الوطنية حينئذ، بل كان يشارك بهمة كبيرة في أنشطة جمعية العلماء ويقوم بمهمات كثيرة بتكليف منها، إضافة إلى مهمته كإطار قيادي في الكشافة الإسلامية الجزائرية.

من ذلك أنه زار تونس سنة 1949، مندوبا عن الشيخ العربي التبسي، لتفقد أحوال الطلبة الجزائريين في الجامعة الزيتونية.

وقام في أواخر شهر جويلية من سنة 1950، بزيارة إلى المغرب الأقصى، بتوجيه من الأستاذ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فحل بفاس، وزار معظم مدارسها، كما زار مدارس مكناس، والرباط، وسلا، والدار البيضاء. وقد حظي في هذه الزيارة بالتكريم والحفاوة من رجالات المغرب: مديرو المدارس ومعلموها، وأعضاء حزبي الشورى والاستقلال، وأعضاء الحكومة.

كما قام في صائفة سنة 1951 برحلة إلى فرنسا، عن طريق البحر، ومنها انتقل إلى النمسا وحضر المؤتمر العالمي للكشاف، ممثلا عن الكشافة الإسلامية الجزائرية ومرافقا لقائدها الأستاذ محمود بوزوزو.

وفي سنة 1953، توجه إلى جمهورية مصر العربية، ضمن وفد الكشافة الإسلامية الجزائرية المكون من 28 كشافا، لحضور حفلات الذكرى الأولى لثورة يوليو 1952، استجابة لدعوة الكشافة المصرية. وقد استقبلوا أثناء مرورهم عبر ليبيا من قبل كشافة طرابلس والإذاعة الليبية وأعضاء من الحكومة، وشاركوا في استعراض بشارع عمر المختار منشدين (شعب الجزائر مسلم). وعند الوصول إلى مصر حظي الوفد الجزائري باستقبال حار من قبل الكشافة المصرية، وهيئت لهم جولات وزيارات واستقبالات على مدى عشرة أيام، حيث طوف بهم مضيفوهم في المدن، والمصانع، والمتاحف، والمعاهد، والمطابع، والمساجد، والقصور، والأهرامات، والمكتبات والإدارات، بما فيها قصر رئاسة الجمهورية، والبرلمان وجامعة الدول العربية، وغيرها.

وقد سجل الغسيري وقائع هذه الرحلة في مقال نشر على حلقتين في جريدة (البصائر) في شهر سبتمبر سنة 1953، بعنوان (مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية).

إسهامه في ثورة التحرير:

مما كتبه الغسيري في مذكراته؛ أنه في زيارته السابقة الذكر إلى القاهرة حظي هو ورفاقه بلقاء المجاهد المغربي القائد السيد عبد الكريم الخطابي، وقد وصف لنا ما جرى في هذا اللقاء، فقال:

"في صائفة سنة 1954 زرنا، في رحلتنا إلى المشرق العربي، بالقاهرة (الأمير عبد الكريم الخطابي) وذلك في منزله، وكنا كشافة يبلغ عددنا 28 وصحافيين خمسة، ومنهم: فرحات عباس وأحمد بومنجل والطاهر التيجاني ومحمد الهادي جمام، وفي أثناء تحدثه إلينا أعلن بأنه سيطلعنا على سر يجب كتمانه، وأنه ليعمد إلى أخذ الأيمان منا على المصحف الشريف ألا نذيع هذا الخبر أبدا حتى يتحقق العمل به، وأقسمنا جميعا أن لا نذيع السر، ثم قال، بعد أن سأل كلا منا عن مهنته التي يمتهنها في البلد: إن عليكم ان تعلنوا الثورة المسلحة بعد عودتكم إلى الجزائر، ولقد أضحى مستحيلا أن تمنحكم فرنسا أي حق بدون إعلان الجهاد والشروع فيه فورا، وإن لم تفعلوا لا قدر الله فإن هناك من يعلنه ومن هنا من القاهرة، ولست أنا بعيدا عن ذلك.. وعدنا إلى الجزائر على أمل تنفيذ العهد والمشاركة في العمل العظيم الذي سيجابهه شعبنا، وما هي إلا اشهر حتى أعلنت الثورة يوم غرة نوفمبر 1954. وبعدها مباشرة أعلنا تأييدنا لها والتحقنا جميعا بالفروع التي حددت لنا، وكنا نحن المعلمين في مدينة قسنطينة نعمل فرادى ومع وحدات الجيش في ميدان التمويل والتسليح، ثم ما لبثنا أن أعلنا نحن المعلمين الأحرار أي معلمي مدارس جمعية العلماء بواسطة منشور بجريدة (البصائر) أننا جميعا مؤيدون للثورة وملتحقون بصفوفها ونتحمل كل عواقب عملنا ذاك، وما هي إلا أيام حتى بدأت المدارس تغلق والإخوان يسجنون...".

كان للغسيري إذن نشاط كبير في إطار دعم الثورة وحشد الطاقات البشرية والإمكانات المادية للإسهام فيها، وقد دام نشاطه على تلك الحال قريبا من سنة ونصف، مما جعل الاستخبارات الاستعمارية تتابع أنشطته وتحصي عليه حركاته وتتحين الفرص للانتقام منه.

وقد كانت حادثة اغتيال محافظ شرطة قسنطينة، فرصة سانحة للانتقام من رجال الفكر والثقافة الناشطين في إطار الثورة.

وقد كتب الغسيري في مذكراته عن هذه الحادثة وما نتج عنها من تداعيات، فقال:

"غرة أبريل 1956، وفي هذه الأيام حدثت أحداث في قسنطينة، قتل فيها رئيس قسم البوليس (رحبة الصوف) المدعو (سامار سيلي)، وذلك على يد فدائي أطلق عليه رصاصة أردته صريعا في الحين (في رواق الجزارين قريبا من الجامع الأخضر). وكان أن عمدت السلطات الفرنسية إلى إلقاء القبض على جماعة من رفاق النضال في مدينة قسنطينة فأعدمتهم غيلة وغدرا، وكان بينهم الكاتب القصصي (أحمد رضا حوحو) كاتب (معهد ابن باديس)، والحاج إسماعيل بوعلاق عضو جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وعلي بودور، وعلي نزار، وعبد الملك بوزو، وعلاوة بوالصوف، وغيرهم، وقد قتلوهم دون محاكمة. كما أن ولد الكوميسار القتيل (سامار سيلي) حمل رشاشه في معية جمع من القتلة الفرنسيين، فخرجوا هائجين إلى الشوارع قرب (الكدية) يطلقون الرصاص على كل من يجدونه أمامهم، فقتلوا عديدا من سكان المدينة ثأرا لقتيلهم". اهـ.

وقد أُخْبِرَ الغسيري، من طرف محام اسمه عبد الحميد بن باحمد كان صديقا لوالي قسنطينة، بأن اسمه مدون ضمن قائمة المعنيين بالاعتقال وربما الإعدام، مما اضطره إلى التخفي والخروج من قسنطينة متوجها إلى الجزائر العاصمة بواسطة القطار.

خروجه من الجزائر:

وفي 9 أبريل 1956، تمكن من السفر إلى فرنسا باسم مستعار، حيث وصل إلى مرسيليا التي انتقل منها إلى ليون، وهناك كلف بالعمل مع العمال الجزائريين بغية تأسيس خلايا جبهة التحرير الوطني بها، فقام بالمهمة التي أسندت إليه بنجاح.

وبعد مدة قضاها متنقلا في تلك المنطقة والمدن المجاورة لها، انتقل إلى باريس أين التقى بقيادة شعبة جبهة التحرير فيها حينئذ: أحمد طالب الإبراهيمي وصالح الوانشي ومحمد لبجاوي.

وقد قضى شهر رمضان من تلك السنة في باريس، في اجتماعات متواصلة مع العمال الجزائريين في منازلهم وفي أماكن اجتماعاتهم السرية.

ثم دُبِّر له بعد ذلك أمر السفر إلى القاهرة عبر سويسرا، حيث غادر التراب الفرنسي متوجها إلى زوريخ، التي وصلها يوم 19 ماي 1956، وفي صبيحة يوم 20 منه حل بمطار القاهرة.

تمثيل جبهة التحرير في دمشق:

أقام الغسيري في القاهرة مدة شهر، ثم جاءه التكليف من قيادة جبهة التحرير الوطني بالانتقال إلى دمشق، التي وصلها في 21 جوان 1956، حيث تم تعيينه ممثلا دائما للجبهة فيها، وقد عمل أولا مساعدا للأستاذ عبد الحميد مهري، ثم بعد استدعاء هذا الأخير إلى القاهرة صار هو الممثل الرسمي للجبهة في سوريا، وهناك ظل يقوم بمهمة حشد الدعم للثورة الجزائرية والتعريف بها والتبشير بقرب انتصارها، كما ظل يشرف على الحصص الإذاعية الموجهة من دمشق إلى الجزائر وثوارها، إلى غاية استقلال الجزائر سنة 1962.

وأثناء وجوده في دمشق، وبشهادة الأستاذ محمد مهري الذي عمل معه هناك، ربط الغسيري علاقات وطيدة مع أهل الشام حكومة وشعبا، وكان يحظى بمحبة واحترام كبيرين، لما كان يتميز به من تواضع جم وصدق في المعاملة وتفان في خدمة القضية الوطنية والتعريف بها وجمع الناس على تأييدها.

عمله الدبلوماسي بعد الاستقلال:

بعد الاستقلال عاد الغسيري إلى الجزائر ليستقر فيها، لكنه ما لبث أن تم تعيينه من قبل الحكومة الجزائرية سنة 1963 كأول سفير للدولة الجزائرية في

المملكة العربية السعودية، وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى غاية سنة 1970، وقد استطاع ببُعد نظره وحنكته السياسية ومرونته الدبلوماسية أن يربط علاقات ممتازة بين البلدين، مما جعله محل تقدير بالغ واهتمام كبير واحترام عال من قبل القادة السعوديين، يظهر ذلك من خلال منحه السيف الذهبي لآل سعود، وهو تقدير من الدولة السعودية لم يحظ به أحد قبله.

وفي سنة 1970، انتقل إلى الكويت سفيرا للجزائر بها كذلك، وممثلا أيضا للجزائر في اليمن الجنوبية والإمارات العربية المتحدة، مع الإقامة في الكويت.

وفاته:

في صائفة سنة 1974، عاد الغسيري إلى الجزائر لقضاء عطلته السنوية بها، وقام بزيارة إلى مسقط رأسه غسيرة، واتصل بأهله وأقاربه في كاف لعروس، ومنها انتقل إلى تكوت، حيث بدأ يشعر بآلام في البطن.

وفي مساء 22 جويلية كان على موعد مع العشاء في أريس بدعوة من رئيس دائرتها، لكن الآلام المتزايدة منعته من تناول الطعام، مما جعله يسافر في الساعة الحادية عشرة ليلا إلى مدينة باتنة، حيث قضى ليلته تلك عند الشيخ الأمير صالحي مدير الشؤون الدينية لولاية باتنة حينئذ.

وفي ضحى يوم 23 تعرض لنزيف داخلي، نقل على إثره إلى مستشفى باتنة ومنه إلى مستشفى قسنطينة.

ثم نقل إلى الجزائر العاصمة أين أدخل المستشفى، ليوافيه أجله المحتوم يوم 24 جويلية 1974م. ودفن بمقبرة العالية. رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

وكان الذي أبنه هو زميله وصديقه الشيخ علي مرحوم رحمه الله، الذي ألقى كلمة مطولة أشاد فيها بخصاله وجهوده وأعماله.

آثاره الفكرية:

تميز الغسيري بقدرات بيانية عالية، وكان يتوفر على موهبة ظاهرة في الكتابة والتأليف، إلا أن انشغاله المتواصل بالتدريس والتفتيش والإدارة في ميدان التربية والتعليم، ونشاطه القيادي في إطار الكشافة الإسلامية الجزائرية، ثم انخراطه بعد ذلك في العمل الدبلوماسي، كل ذلك منعه من أن يتفرغ للكتابة والتأليف، ولذلك كان ما كتبه قليلا رغم أهميته البالغة.

وقد أحصينا له من الآثار ما يلي:

1ـ مجموعة مقالات في نشرية (الحياة) لسان حال الكشافة الإسلامية الجزائرية.

2ـ مجموعة مقالات حول رحلته إلى الحج سنة 1953، منشورة في جريدة (البصائر) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، صدرت الحلقة الأولى في العدد 250 من السلسلة الثانية، الصادر يوم 5 ربيع الثاني 1373 هـ، الموافق 11 ديسمبر 1953، أما آخر حلقة فظهرت في العدد 276 الصادر يوم 24 شوال 1373 هـ الموافق 25 جوان 1954م.. وهذه المقالات نشرها المجلس الإسلامي الأعلى سنة 2008 مجموعة في كتاب مستقل يحمل العنوان الرئيس الذي وضعه لها كاتبها، وهو (عدت من الشرق).

3ـ مجموعة مقالات نشرها في جريدة (البصائر) في مناسبات مختلفة.

4ـ مقال في مجلة (حضارة الإسلام) الدمشقية، العددان الخامس والسادس، جمادى الأولى والثانية 1380 هـ، تشرين الثاني وكانون الأول 1960 م، (الصفحات: 19 ـ 29)، بعنوان (الجزائر: ماضيها وحاضرها البطولي الثوري)، وهو عبارة عن خطاب ألقاه الغسيري بمناسبة أسبوع الجزائر الذي أقامته الجمهورية العربية المتحدة سنة 1960.

5ـ كتاب (خلاصة الدروس الفقهية) التي قررتها لجنة التعليم العليا لمدارسها وطبعتها في شكل منشور تم توزيعه على المدارس.

6ـ كتاب (صورة من حياة ونضال الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس)، وهو هذا الذي بين يدي القارئ.

7ـ مجموعة حوارات أجرتها معه بعض الصحف والمجلات العربية أثناء الثورة وبعدها، وهي ما تزال متفرقة ولم يتم جمعها.

8ـ مجموعة من الخطب والمقالات والمراسلات المخطوطة، والمتوفرة على مستوى مركز الأرشيف بولاية قسنطينة، وقد حصلت على نسخ منها.

شهادات عارفيه بحقه:

حظي الغسيري بكثير من الاحترام والتقدير من قبل عارفيه، لما تميز به من أخلاق عالية وخصال رفيعة، ولما كان يتحلى به من تواضع جم ووفاء نادر وتفان في خدمة دينه ووطنه، يتجلى ذلك من خلال الشهادات التي أدلى بها كثير من عارفيه بحقه، ومنها:

1ـ الأستاذ علي مرحوم رحمه الله: زميل الغسيري في الدراسة والتربية والتعليم، قال في تأبينه عند وفاته: "إن فقيدنا من بين أعضاء الفئة القليلة التي صمدت وثبتت في البأساء والضراء، وتعاونت على البر والتقوى في سبيل العمل على تربية الأجيال الناشئة تربية إسلامية، يوم أن كان العمل في هذا السبيل يعرض ذويه لأقسى ألوان الاضطهاد من طرف الاستعمار وزبانيته، ويوم أن كانت اللغة العربية تعد أجنبية في زعم هؤلاء لا يستحق ذووها إلا النبذ والاحتقار".

2ـ الشيخ محمد الصالح رمضان رحمه الله: أحد الأعلام الشوامخ في سماء الثقافة العربية الإسلامية الجزائرية، وزميل الغسيري في طلب العلم وفي التدريس وفي قيادة الكشافة الإسلامية الجزائرية، يقول عن رفيقه وزميله:

"الشيخ محمد الغسيري مناضل ماجد شريف من رجال العروبة والإسلام والوطنية في الجزائر، نشأ في أحضان الحركة الإصلاحية السلفية... وهو من نجباء تلاميذ ابن باديس بالخصوص، عمل في ميادين الحركة الإصلاحية التي تربى فيها، حيث كرس لها الشطر الأكبر من حياته المثالية، ينشر العربية ويعرف بالإسلام الصحيح والوطنية الحقة بقلمه ولسانه".

3ـ الأستاذ محمد الحسن فضلاء رحمه الله: زميل الشيخ الغسيري في الدراسة والتربية والتعليم، يقول عنه: "الشيخ الغسيري؛ أحد بواكير النهضة التعليمية بقسنطينة، كاتب لامع، ومرشد كشفي بارع، علم فأجاد، وربى فأفاد".

4ـ الشيخ عبد الرحمن شيبان رحمه الله: الرئيس السابق لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو من أقران الشيخ الغسيري وممن عرفوه في قسنطينة عندما كان في ريعان شبابه، يقول عنه: "المرحوم الشيخ محمد يكن المنصوري الغسيري، من الرجال الأفاضل الكرام الذين أحمد الله على أن جمع بيني وبينهم، وقد كان رحمه الله مثال الطموح والجد والاستقامة، ويكفيه فخرا أنه من القلائل الذين عهد لهم الإمام المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس بالنيابة عنه في إلقاء بعض الدروس على طلبة الجامع الأخضر في سيدي بومعزة في أوقات فراغه من المدرسة، وذلك تنويها من الإمام ابن باديس رحمه الله بكفاءته واقتداره، هذه الكفاءة التي أهلته رحمه الله أن يشغل مناصب كثيرة ويتولى أدوارا خطيرة".

5ـ الأستاذ محمد مهري: الأديب والمحامي، وهو أحد الذين عملوا مع الغسيري في دمشق في إطار تمثيل جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة، يقول: "الحديث عن الشيخ الغسيري هو حديث عن الخصال، عن الفضائل، عن النبل، نبل الأخلاق... وأشهد أن هذا الرجل بسلوكه وبالفضائل التي تحلى بها غزا قلوب أهل الشام، فاحتل مكانة كبيرة في قلوبهم، كان هذا الرجل محل تقدير واعتبار من جميع الأوساط الحكومية والشعبية والحزبية والثقافية وغيرها".

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم، ذو أهمية بالغة، لأن مؤلفه كان تلميذا للمترجَم له الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، بل لم يكن تلميذا عاديا من تلاميذه، وإنما أحد أخلص تلاميذه وأقربهم إليه، وكان ملازما له منذ أن انتقل إلى قسنطينة للدراسة على يديه سنة 1933 إلى حين وفاة الشيخ رحمه الله سنة 1940، أي مدة سبع سنوات.

في خلال هذه المدة نهل الغسيري الكثير من علم شيخه، كما أخذ من أدبه وأخلاقه، وعمل تحت إشرافه معلما في مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، وأدى مهام كثيرة بتكليف مباشر منه.

لذلك لا غرابة أن يكون كتاب الغسيري عن ابن باديس، كتاب عارفٍ سبَرَ الغورَ واطَّلَعَ على خفايا الأمور.

من خلال النظر في محتويات الكتاب والمنهج الذي سلكه الغسيري في تأليفه، يتبين لنا أن المؤلف رحمه الله أراد أن يؤلف كتابا شاملا عن أستاذه ابن باديس، ولذلك حاول أن يرجع إلى التاريخ العريق يستنطقه عن أصل الرجل ونسبه وتاريخ أسرته ومكانتها في المجتمع القسنطيني خاصة والجزائري عامة. كما رجع إلى التاريخ القريب، يكشف من خلاله عن العلاقات التي كانت بين الجزائر وفرنسا وكيف انتهت إلى الاحتلال، كما يتحدث عن الظروف التي ألمت بالمجتمع الجزائري منذ دخول الاستعمار الفرنسي والثورات التي قامت لتحرير البلاد، وينتهي من ذلك كله إلى تحديد الملابسات التي أحاطت بظهور ابن باديس وعملت عملها في تكوينه النفسي والديني والعلمي والوطني.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن شروع الإمام ابن باديس في العمل الإصلاحي، والمجالات التي وجه إليها اهتماماته، ويبين أن هذه الأعمال سرعان ما أثمرت نتائجها وآتت أكلها بإذن ربها، لما تميز به الرجل من إخلاص عميق وهمة قوية وعزيمة نادرة.

وقد ركز المؤلف على جهود ابن باديس في المجال الاجتماعي والمجال التربوي والمجال الصحفي، وكشف عن جوانب التجديد التي أبدع فيها في هذه المجالات.

ولم يَفُتِ المؤلفَ وهو يتحدثُ عن عمل أستاذه في هذه المجالات، أن يركز مرة بعد أخرى على خصاله وجوانب العظمة في نفسه وأعماله.

وكنا نود أن يتواصل بحث المؤلف لحياة أستاذه ابن باديس كلِّها بهذه الصورة، ولكن يبدو أن الأجل قد أدركه قبل أن ينتهي مما بدأ، فتوقف البحث عند حدود حوالي سنة 1927 م، أي قبل إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولذلك لم نتمكن من الاطلاع على تحليل المؤلف لأحداث حياة ابن باديس وأعماله إلى سنة 1940 م، وهي أعمال جليلة وعظيمة كان لها أثرها العميق في واقع المجتمع الجزائري في ذلك الحين ومستقبله الذي جاء بعد ذلك.

بقي فقط أن أشير إلى أمر هام بالنسبة لي، مما لاحظته من هذا الكتاب، وهو أن الغسيري يؤكد أن ابن باديس ولد سنة 1892 م، نصَّ على هذا في العنوان الرئيس للكتاب وفي سياق الحديث عن مولد ابن باديس.. مع أن الجميع يعلم أن ابن باديس ولد سنة 1889 م. وكان يمكن اعتبار الأمر مجرد سهو لو أن المؤلف ذكر هذا التاريخ مرة واحدة، ولكنه ذكره مرتين، ولذلك تركته على حاله دون تغيير، إذ ربما كان المؤلف قد علم شيئا من ذلك عن طريق أستاذه مباشرة، والله تعالى أعلم.

نص كتاب

صورة من حياة ونضال

الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير

الشيخ عبد الحميد بن باديس

قدس الله روحه (1892 - 1940 م)

"الوفاء قليل في البشر، وأوفى الأوفياء من يفي للأموات، لأن النسيان غالبا ما يُباعِدُ بين الأحياء وبينهم، فيغمِطون حقوقَهم، ويجحدون فضائِلَهم".

محمد الغسيري[1]

(1)ـ جريدة البصائر، العدد 76، السنة الثانية من السلسلة الثانية، يوم الإثنين 20 جمادى الثانية 1368 هـ، الموافق ليوم 18 أبريل 1949 م، ص: 1..

تمهيد ومقدمات

الدولة الصنهاجية في إفريقية والمغرب الأوسط:

ينتمي الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الاجتماعي الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس قدس الله روحه إلى عائلة المعز بن بلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي[1]، فهو من قبيلة صنهاجة إحدى كبريات القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط (الجزائر). وتنتشر صنهاجة[2] في عدد من الجهات، وتشارك في أحداث هذه البلاد باستمرار.

وكان مناد بن منقوش من عمال دولة الأغالبة[3] في كل من تونس والجزائر، وكان أبناؤه وأحفاده يتولون الملك ويتوارثونه أبا عن جد.

---

(1)ـ هو أبو الفتوح سيف الدولة بولوغين بن زيري بن مناد الصنهاجي، يعد مؤسس الدولة الزيرية بالجزائر، ثم تولى حكم القسم الشرقي من المغرب الإسلامي، بعد أن استخلفه المعز لدين الله الفاطمي على إفريقية عند توجهه إلى مصر. وكان استخلافه إياه سنة 361هـ. نجح بلكين في أن يقضي على الفتن الداخلية، وحقق استقرارا كبيرا بالبلاد إلى أن مات سنة 373 هـ/ 984م.

(2)ـ صنهاجة (أو قبائل صنهاجة) هي واحدة من أكبر الاتحادات القبائلية الأمازيغية من البرانس من البربر في شمال غرب أفريقيا كمثيلتيها قبائل زناتة ومصمودة. وهم بنو صنهاجة بن برنس بن بربر وقيل صنهاج بنأوريغ بن برنس بن بربر. استقرت قبائل صنهاجة في بداياتها في شمالي الصحراء الكبرى. وبعد وصول الإسلام، انتشروا كذلك في بلاد السودان (أي على ضفاف نهري السنغال والنيجر). بدأت قبائل صنهاجة تستقر تلقائيا في الأطلس المتوسط منذ القرن التاسع للميلاد، كما في جبال الريف وعلى الساحل الأطلسي للمغرب. جزء من الصنهاجيين استقروا في شرق الجزائر (كُتامة)، ولعبوا دورا هاما في وصول الفاطميين للسلطة. حكمت سلالات صنهاجية مثل الزيريينوالحماديين في إفريقية حتى القرن الثاني عشر للميلاد.

(3)ـ مؤسس هذه الدولة هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، وقد حكمت تونس من سنة 184 هـ/ 800 م، إلى سنة 296 هـ/ 909م.

وفي عهد الدولة الفاطمية[1]، وعندما قرر المعز لدين الله الفاطمي[2] نقل خلافته إلى مصر من المهدية بتونس سنة 361 هـ، 972م، استقدم بلكين بن زيري وعينه أميرا على بلاد المغرب كلها، وسماه يوسف، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة، وكان ذلك بداية لظهور الدولة الصنهاجية بإفريقية والمغرب الأوسط.

ولقد اتسع نفوذ هذه الدولة، وقوي سلطانها، مماجعل الدولة الفاطمية تخشى عاقبتها، فبدأت تقلص من نفوذها وسلطانها بالإيعاز لبعض عمالها بالتمرد والعصيان عليها، فكثرت الفتن.

وشعرت [أي الدولة الصنهاجية] بنوايا الفاطميين السيئة نحوها، فكتم ولاتُها غيظَهم أولا، وحاربوا الثوار بقوة، وحاولوا القضاء على ثورة أبي فهم الكتامي (377 هـ) وأبي الفرجالذي يدعي انتسابه للقائم المنصور (379 هـ) وأبي البهار حاكم تيهرت (أواسط الجزائر) (379 هـ).

وفي عهد المعز بن باديس (406 ـ 454 هـ/ 1016 ـ 1062 م)، اشتد عداء الناس للمذهب الفاطمي وكثرت عودتهم للمذهب السني المالكي، فانضم المعز لهذا التيار الجديد، ودعا الناس إليه، ولم يكتف بذلك بل أعلن الانفصال عن الدولة الفاطمية، وقطع الدعوة للخليفة الفاطمي عام 440 هـ وحولها للعباسيين وأمر برفع راياتهم السود في البلاد إيذانا بانتهاء عهدهم في المغرب. ولكن الفاطميين لم يسكتوا، بل دبروا زحف بني هلال وبني سليم[3] على

(1)ـ مؤسسها هو عبيد الله المهدي الشيعي، الذي بويع في مدينة رقادة سنة 297 هـ/ 910م، ولقب بأمير المؤمنين، وقد نشأت أولا بالمغرب العربي ثم انتقلت إلى مصر، وكانت نهايتها على يد صلاح الدين الأيوبي الذي أسس الدولة الأيوبية في مصر على أنقاضها. كتبت عن هذه الدولة مؤلفات كثيرة.

(2)ـ المعز أبو تميم هو رابع الخلفاء الفاطميين في المغرب والأول في مصر، حيث أرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلي لتأسيس القاهرة. وكان حكمه يتسم بالحكمة والرزانة وسداد الرأي..

(3)ـ فيما يتعلق بهذا الموضوع، يمكن مراجعة كتاب (الوجود الهلالي السليمي في الجزائر)، للأستاذ عبد الحميد خالدي، نشر: دار هومة، الجزائر، 2003م.

إفريقية ليقضوا على صنهاجة وأمرائها، فتم لهم ما أرادوا، ولا سيما وأن بني هلال وبني سليم ساعدهم على القضاء على الدولة الصنهاجية زحف النورمانعلى تونس واستيلاؤهم على عاصمتهم المهدية عام 543 هـ، 1128 م، فكان كل ذلك ضربة قاضية حتمية لهم.

ولقد بلغ ملك هذه الدولة أوجه حين عنيت بالزراعة والصناعة ونشر العلم والتجارة والحياة العمرانية، مما جعلها مركزا عظيما للرخاء والثراء والتعاون مع الدول المجاورة لإسعاد الناس. لكن ذلك أصبح هباء بعد نزوح بني هلال وبني سليم عن موطنهم في صعيد مصر، وكان عددهم يزيد عن (400) ألف نسمة، حيث أتوا على الأخضر واليابس بواسطة الإحراق والتخريب، يدفعهم حقدهم الذي زودهم به الفاطميون على هذه الدولة، مما جعلهم يحتلون ليبيا وتونس، وبلغ بعضهم إقليم الزاب وبني راشد في المغرب الأوسط. وهكذا انتهى أمر الصنهاجيين نهاية كاملة، وصدق المثل العربي القائل (الأنام فرائس الأيام).

وفيما يلي أسماء أمراء دولة صنهاجة الشرقية:زيري بن مناد (335 هـ)، بلكين بن زيري (360هـ)، المنصور بن بلكين (373 هـ)، باديس بن المنصور (368 هـ)، المعز بن باديس (406 هـ)، تميم بن المعز (454 هـ)، يحيى بن تميم (501 هـ)، علي بن يحيى (509 هـ)، الحسن بن علي (515 هـ).

ظهور إمارة بني حماد:

في عهد إمارة المنصور بن بلكين الصنهاجي عقد لأخيه حماد على ولايتي آشير والمسيلة، وطلب إليه أن يواجه ثورات قبيلة زناتة، فقام بهذا العبء بكفاءة ومقدرة نادرة، فأقره على ولايته باديس بن المنصور بعد موت أبيه عام 373 هـ، 997 م، ولم يفلح زاوي وماكس ابنا زيري في ثورتهما ضد حماد، لأنه قاومهما، وقتل ماكس، وأرغم زاوي على الرحيل إلى الأندلس (390 هـ، 1000م).

وعندما عهد باديس لحماد بأمر محاربة زناتة الثائرة عام (395 هـ، 1005 م)، اشترط حماد على باديس أن يمنحه حكم المغرب الأوسط وكل ما سيفتحه من جديد من أقطاره، وأن يمنحه الحرية في اختيار مكان يراه ينشئ فيه عاصمة لإمارته الجديدة، فقبل باديس بالشروط. وبذل حماد جهودا كبيرة حتى قهر الزيانيين[1]، ثم أنشأ مدينته الجديدة (القلعة) عام (398 هـ، 1007 م)، وهي تقع فوق جبال منيعة لا تبعد كثيرا عن آشير الواقعة جنوب غربي مدينة برج أبي عريريج الحالية وفي شمال شرقي مدينة المسيلة الحالية.

وقد عظُم أمر هذه الدولة أو الإمارة، وذاع صيتها، وفرضت هيبتها في عهد حماد، حتى أصبح باديس يخشى عواقب عصيانها، ولقد حاول يوما أن يكتنه أمر هذه الدولة فانتهز فرصة إرسال الخليفة الفاطمي بولاية العهد إلى المعز ابنه، وبعث رسولا إلى حماد يطلب منه التنازل عن إقليمي تيجس وقسنطينة، فرفض ذلك فتطور الأمر إلى قيام حروب عديدة انتهت بتأسيس الدولة الحمادية[2] (405 هـ، 1014 م) بعد أن قطع حماد الدعوة للفاطميين وحولها إلى العباسيين.

وكان حماد يتوقع مهاجمته من طرف أبناء عمومته بالمهدية (في تونس) فاحتاط لنفسه، وواجه جيوش باديس بقيادة هاشم بن جعفر، وهزمها قرب مدينة الكاف (بتونس الآن)، واحتل باجة وسيطر عليها، وأخذ يدعو لنبذ

---

(1)ـ بنو زيان أو بنو عبد الواد سلالة بربرية زناتية حكمت في غرب الجزائر بين 1235 و1554م. وكان مقر عاصمتهم في تلمسان.وقد كان بنو زيان حلفاء للموحدين الذين منحوهم تلمسان ليديروها تحت سلطة الموحدين، إلا أن يغمراسن أعلن الاستقلال، فكان أن قامت الحروب بينه وبين الموحدين، ثم بعد وفاته بين الزيانيين والمرينيين، وبينهم وبين الحفصيين. أرخ لهم ابن الأحمر في كتابه (تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان)، والحافظ التنسي في كتابه (دولة بني زيان ملوك تلمسان).

(2)ـ فيما يتعلق بدولة بني حماد، يمكن مراجعة كتاب (دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية) للأستاذ إسماعيل العربي، وكتاب (دولة بني حماد صفحة رائعة في تاريخ الجزائر) للدكتور عبد الحليم عويس، وكتاب (الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها) للدكتور رشيد بورويبة.

المذهب الفاطمي، وهناك خرج إليه باديس بنفسه فاضطر إلى التراجع أمامه إلى آشير، ولكنه وجدها ثائرة ضده، فتقهقر حتى وصل إلى جهات نهر الشلف غرب مدينة الجزائر، ولحق وراءه باديس واستولى على آشير والمسيلة ومناطق سهول السرسو (قرب تاهرت)، والتحم مع حماد وهزمه ثانية فالتجأ إلى القلعة (العباسية) حيث وافاه فيها نبأ وفاة باديس، ولم يَقْوَ أخوه كرامة أن يقف في وجه حماد الذي تنفس الصعداء، فتفرق أنصاره عنه، وقد التحق بالمعز بن باديس بالقيروان عام (407 هـ، 1014م).

ولم يكن حظ المعز أكثر من حظ أبيه في محاربة حماد رغم انتصاره عليه في عدة وقائع، ولهذا تصالح الرجلان طويلا وتبادلا الرسائل والهدايا. ومدت الإمارة الحمادية نفوذها إلى المغرب الأقصى ومعظم المغرب الأدنى وسيطرت عليهما، وشملت سلطنتها في الجنوب بلاد الزاب ووادي ريغ وورغلة.

ومن آثار هذه الإمارة إنشاؤها لمدينتي القلعة وبجاية عام (460 هـ، 1067م) قرب مدينة صلداي الفينيقية في عهد الناصر، وكانت تسمى أولا الناصرية.

وفي عهد هذه الإمارة زحف الهلاليون مرة ثانية على المغرب الأوسط، وانتشروا جنوب الأوراس، ومناطق الزاب، والقالة، وعنابة، وقسنطينة، والقل، وجبال بابور، والبيبان، ووادي الساحل (قرب بجاية).

ولم يَخْلُ عهد هذه الإمارة من الازدهار في الآداب والثقافة والتجارة والعمران وإقامة السدود والخزانات لسقي الأرض والأهالي في المدن.

وفي أواخر أيامها وهزال ولايتها ـ ولا سيما الأمير يحيى بن المعز الذي كان مستهترا مهملا لشئون الإمارة، وكثرت هجمات النورمان من صقلية على المغرب ـ تعاون الوزير مع الأمير الموحدي عبد المؤمن بن علي الذي بدأت دولتُه تقوى في المغرب، ولبَّى دعوة الوزير لاحتلال الجزائر، وخرج من مراكش (546 هـ، 1151 م) واقتحم الحدود بسهولة فدخل مدينة الجزائر دون قتال، وعين عليها

الحسن بن علي آخر أمراء صنهاجة بالهوية الذي وجده هناك، ثم استوليعلى بجاية بعد معارك عام (547 هـ، 1152 م) ففر منها واليها يحيى بن عبد العزيز إلى عنابة، ولكنه لم يرحب به فتحول إلى قسنطينة حيث أخوه الآخر الحسن بن علي فأكرمه وتنازل له عن الولاية. أما عبد المؤمن فقد اتجه إلى القلعة فحاصرها واستولى عليها بعد قتال عنيف، ومنها اتجه إلى قسنطينة وسيطر عليها بعد استسلام واليها ومبايعته له، فصحبه معه عبد المؤمن إلى المغرب حيث انزله مع ابن عمه الحسن في قصر واحد في مدينة سَلاَ (قرب الرباط). كما استولى عبد المؤمن على تونس والمهدية عام (555 هـ، 1160 م). وبسقوط ولاية عنابة في يد الموحدين انتهت إمارة الحماديين بعدما حكمت قرنا واثنين وأربعين عاما.

وفيما يلي أسماء أمراء الحماديين:

حماد بن بلكين	405 هـ، 1014 م
القائد بن حماد	419 هـ، 1128 م
محمد بن القائد	446 هـ، 1054 م
بلكين بن محمد بن حماد	447 هـ، 1055 م
الناصر بن علناس	454 هـ، 1062 م
المنصور بن الناصر	841 هـ، 1089 م
باديس بن المنصور	498 هـ، 1104 م
العزيز بن المنصور	498 هـ، 1105 م
يحيى بن عبد العزيز	515 هـ، 1121 م

العلاقات الجزائرية الفرنسية والاحتلال

قد يكون من أسباب التفكير في احتلال فرنسة للجزائر؛ أن الصليبيين لما أخفقوا في الشرق العربي وطُرِدوا منه نهائيا بنضال أبنائه، سَاءَهُم الأمرُ فحولوا أنظارهم نحو المغرب الإسلامي، ولا سيما بعد هزيمة العرب في الأندلس ومحاولاتهم [أي الصليبيين] ملاحقة العرب في المغرب. وكانت فرنسة ضمن الدول الصليبية المخذولة، فأخذت تتصل بالمغرب الإسلامي، وخاصة مع الجزائر، بغية المتاجرة معها، بإنشائها مراكز لها لصيد المرجان في شرق الجزائر في مدينة عنابة والقالة، ولإقامة حصن ومركز هناك أصبح يعرف فيما بعد بحصن فرنسة، على أن لا يسلح، ولكن التجار خالفوا فسلحوه فيما بعد.

وحين حققت وحدتها بضم إمارة بروفاس إليها واستقر الأمن في أرضها وتمتعت بنعمة الاستقرار، رأت أن تنتهز فرصة ضعف اسبانيا ومركزها في أوروبا، وأيضا عدم ظهور مصالح ثابتة لبريطانيا في البحر الأبيض المتوسط، بينما لم يحصل بعدُ توحيد إيطاليا.

المعاهدات بين فرنسا والجزائر[1]:

عقدت فرنسة مع الجزائر أول معاهدة دفاعية عام 1270 م على عهد الملك فيليب الثالث (1270 ـ 1285 م)، وحصلت بموجبها على الامتيازات التي كانت ممنوحة للولايات الإيطالية، وبمقتضاها استنجد الملك الفرنسي فرنسوا الأول[2] (1515 ـ 1547م) بالقوات البحرية الجزائرية مرتين، الأولى عام 1536 م، والثانية عام 1543 م لمقاومة اعتداءات شار لكان الاسباني[3].

---

(1)ـ تناول هذه المعاهدات بالدراسة التفصيلية المؤثقة، الدكتور جمال قنان في كتابه (معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619 ـ 1830)، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

(2)ـ فرانسوا الأول François I ملك فرنسا من 1515 حتى 1547م. عُرف عنه شغفه بالفنون والآداب وبإصلاحاته الحكومية.

(3)ـ عرف أيضا بكارل الخامس Charles V (1500 ـ 1558)، ملك إسبانيا (1516 ـ 1556). رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1519 ـ 1556). يُعتبر أحد أعظم الملوك في تاريخ إسبانيا كله. هزم القوات الفرنسية وأسر =

ولقد تلا المعاهدة السابقة إبرام اتفاقين آخرين للصداقة والتحالف، الأول مع الجزائر 1534 م، والثاني مع الدولة العثمانية حققت فرنسة بموجبه امتيازات خاصة لسفنها وملاحتها وتجارتها وقناصلها بالبحر الأبيض المتوسط.

قناصل فرنسة تجار في الجزائر:

كان قناصل فرنسة في الجزائر تجارا ينافسون تجار مرسيليا في الاستيراد من الجزائر، فكرههم الناس وطلبوا من حكومتهم ألا تعين القناصل الفرنسيين التجار ليتولوا مصالحهم، فإنهم لا يُعْنَوْن بها، كما أنهم يُثقِلون كَواهِلَهم بالضرائب. ولقد ثاروا مرة على تاجر من مرسيليا عينه شارل التاسع[1] (1560 ـ 1582 م) قنصلا له بالجزائر، ومنعه الجزائريون من النزول إلى الساحل، فاضطر أن يعود من حيث أتى، ولكن فرنسة تدخلت، وأعادت قنصلا آخر مكانه هو القنصل (سورون) فاستقبله الداي. وكانت تلك بداية التمثيل القنصلي الفرنسي الذي استمر حتى حادثة المروحة عام 1828 م.

العلاقات تسوء بين الجزائر وفرنسة:

في بداية القرن 17 م، تعكر صفو العلاقات بين فرنسة والجزائر بسبب تخطي مؤسساتها الإفريقية للقوانين المتفق عليها، كإقامة التحصينات والمدافع أمامها، ومواجهة الجزائريين بالعنف عندما يحتجون على مثل هذه التصرفات، ورد الفعل من الجزائر بتحطيم هذه الحصون وإحراقها عندما لا يجدي الاحتجاج.

=الملك فرانسوا الأول في معركة بافيا Pavia (عام 1525).في عهده اتسعت رقعة الإمبراطورية في أوروبا وفتحت إسبانيا أجزاء واسعة من المكسيك وبيرو. تخلّى عن العرش (عام 1556) واعتزل في أحد الأديرة الإسبانية.

(1)ـ شارل التاسع Charles IX، كان ملك فرنسا،حكم من 1560 حتى وفاته. ويشتهر بأنه الملك الذي حدثت في عهده مذبحة يوم القديس بارتلوميو.

ولذا ازدادت العلاقات سوءا في عهد لويس الرابع عشر [1](1634 ـ 1715م) بسبب ما كان يُكِنُّه هذا من كُرْهٍ وحقد وعداء للإسلام والمسلمين، وكان وزيره (كولبير)[2] شديدَ الاهتمام بالتجارة مع الشرق وتأسيس امبراطورية استعمارية فيما وراء البحار، ولكن ذلك لن يتم له حتى يدمر البحرية الجزائرية، فوجه حملات ثلاث لتدميرها بمدينة القل، والجزائر، وجيجل، ففشلت الأولى والثانية، ولكنه تمكن من النزول إلى جيجل، ولكن أهلها حاربوه حتى أخرجوه بعد ثلاثة أشهر من نزوله، ولم يحاول الفرنسيون إعادة الكرة إلا بعد سنوات طويلة لتأكدهم من مناعة موانئ الجزائر وعنف مقاومة أهلها.

ولقد استغل الجزائريون متاعب لويس الرابع عشر في حروبه الأوروبية، فأخذوا يشنون [الهجمات] على سفنه في البحر الأبيض المتوسط، ولم يستطع أن يفعل شيئا إلا بعد أن عقد صلح تيموجين(1678م). وبعد الصلح أعاد الكَرَّة ضد الجزائر، ثم خادع سلطانها في إبرام اتفاق معها حول تبادل السرى، وانتظر حتى أطلق الجزائريون ما عندهم من الأسرى ووصلوا إلى مرسيليا فتنكر للاتفاق ورفض إطلاق أسرى الجزائر، فأعلنت الجزائر عليه الحرب عام (1681م)، فوجد هو ومَن بعدَه المبررات لشنِّ هجمات بحرية عديدة بغية احتلال الجزائر، حتى أنهم أمطروا مدينة الجزائر في حملة الأميرال دوستري بعشرة آلاف قنبلة، ولكن الجزائريين استماتوا في الدفاع فقبضوا على القنصل والجالية الفرنسية وقتلوهم جميعا. ومع ذلك تم للفرنسيين احتلال الجزائر عام 1830م.

---

(1)ـ لويس الرابع عشر (Louis XIV) (1638 – 1715م). ملك فرنسا منذ 14 مايو 1643م حتى وفاته. وهو أحد أبرز ملوك البوربون، تولى الحكم وهو في الخامسة من عمره إلا أنه لم يكن يملك السيطرة الفعلية حتى توفي رئيس الوزراء "الكاردينال مازارين" في 1661. كان يلقب بملك الشمس وذلك لاهتمامه بالأدب والفن. وهو الذي قام ببناء قصر فرساي في فرنسا.

(2)ـ ولد جان بتيستكولبير (Colbert)، في فرنسا عام 1619م، والتحق بخدمة الدولة عندما كان عمره 32 عاما، ووقع عليه الاختيار لإدارة مزرعة (الكردينال مازارين) فأدى مهمته بنجاح مما جعل الأخير يوصي به لدى الملك لويس الرابع عشر.ويعتبر كولبير من دعاة المذهب التجاري في فرنسا. توفي عام 1683م.

القروض الجزائرية لفرنسة:

في عام 1793م حصلت فرنسة على قرض من الجزائر بمبلغ ربع مليون فرنك (ذهبا)، وألحت على الداي عام 1793 أن يقرضها ثلاثة ملايين أخرى، ولكن الداي سلم لها مليون فرنك فقط. ثم تضاعفت هذه الديون حتى شملت التي اقترضتها من التاجرين اليهوديين اللذين يتمتعان بالجنسية الجزائرية، ويملكان مصالح هامة واسعة بالجزائر، والتاجران اليهوديان هما يوسف يعقوب كوهين (باكري) وميشيل بوزناك (بوشناق)[1]، وقد كانا وسيطين في التصدير من الجزائر إلى فرنسة، كما كانا وسيطين في القروض السابقة، لأن الداي منحهما تصدير الحبوب مقابل اقتسامهما الأرباح.

تاليران يقترح إنشاء مستعمرات في الشمال الإفريقي وفي الجزائر بالذات:

عندما كان تاليران[2] (1754 ـ 1838م) وزير الخارجية الفرنسية والسياسي الخطير يحاول تنفيذ مغامراته، قدم تقريرا إلى المجمع العلمي الفرنسي بباريس يوم 3 يولية عام 1797 م، يقترح فيه إنشاء مستعمرات حديثة في الشمال الإفريقي وفي الجزائر بالذات، ولكن الحكومة تغافلت عن اقتراحه، واهتمت بتنفيذ مشروع الحملة على مصر عام 1798 م، وصممت على إبقاء دول المغرب على الحياد وخارج الصراع بينها وبين بريطانيا. ولكن هذه الدول تفطنت للحيلة، وسرعان

---

(1)ـ حول هذين التاجرين، يمكن مراجعة: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، للدكتور أبي القاسم سعد الله، وكتاب (يهود الجزائر) للأستاذ فوزي سعد الله.

(2)ـ شارل موريس تاليران(1754–1838). سياسي فرنسي. عين وزيراً للخارجية (1797–99)، وحينما رأى بزوغ نجم نابليون، ناصره وأيد مشروعه الخاص بحملة مصر (1798)، ثم قبل العمل معه وزيراً للخارجية (1799–1807). أحرز أعظم انتصاراته الدبلوماسية كوزير خارجية لويس 18 في مؤتمر فينا (1814–15)، الذي أدى تدخله في مداولاته إلى إنقاذه من الفشل والبوار. كان تاليران فاسد الخلق مرتشياً ، لامع الذكاء، واسع الحيلة، متحللاً من كل قانون أدبي، ومع ذلك فقد عمل لصالح أوروبا، ومنع قيام الثورات والحروب بها، وعمل في ثبات وحزم على إقرار السلام والطمأنينة فيها.

ما أعلنت على فرنسة الحرب في الفترة ما بين 1798 إلى أوائل مايو 1799، وطردت القناصل الفرنسيين ورعاياهم من المغرب وصادرت ممتلكاتهم، وذلك تضامنا مع مصر في رد الحملة الفرنسية على بلادها.

نابليون بونابرت يعقد هدنة مع دول المغرب:

وفي عام 1800 م نجح بونابرت[1] في عقد اتفاقيات هدنة مع دول المغرب، ووقع قنصله (ديبواتانفيل) هدنة مع داي الجزائر يوم 19 يوليو من نفس العام، ثم وقعا معا معاهدة صلح يوم 30 سبتمبر، وتلا ذلك توقيع معاهدتي صلح مع كل من تونس وطرابلس. وتحت ضغط من تركيا العثمانية اضطرت الجزائر إلى إعلان الحرب على فرنسة عام 1801 م، وقلدتها تونس وطرابلس لنفس السبب، ولكن هذه الدول لم تتحمس لهذه الحرب، ولم تستخدم وسائل العنف ضد الرعايا والقناصل الفرنسيين، مما جعل نابليون يرفض اقتراح قنصله (ديبواتانفيل) في إعداد حملة بحرية ضد الجزائر وفتح جبهة جديدة هو في غنى عنها ما دام لم يُسَوِّ بعدُ وَضْعَه في مصالح بريطانيا حتى عام 1801 م في معاهدة لندن بين فرنسة وبريطانيا.

الداي مصطفى باشا يطالب بديون الجزائر:

لقد أخذ مصطفى باشاداي الجزائر يلح في دفع الديون التي على فرنسة للجزائر، فحدثت جفوة بين البلدين، وتلتها اشتباكات بين سفن الطرفين في البحر الأبيض المتوسط، فهدد بونابرت باستخدام القوة ضد الجزائر، وأتبع

---

(1)ـ نابليون بونابرت الأول (Napoléon Bonaparte I) هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين، عاش خلال أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر (1769 ـ 1821). حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلاً عامًا، ثم بصفته إمبراطورًا بين 1804 و1815، حيث كان لأعماله وتنظيماته تأثيركبير على السياسة الأوروبية. اشتهر بحملاته على إيطاليا ومصر وانتصاراته في مواقع مختلفة. نفي بعد هزيمته في واترلو إلى جزيرة هيلانة حيث توفي.

ذلك بإرسال عدد من جواسيسه ليعطوه الصورة الحقيقية عن الجزائر، فأقنعوه بتوفُّر الفرصة لإخضاع الجزائر ومصادرة كنوزها التي ستعود بثروة هائلة على فرنسة وتعوضها خسارتها وهيبتها ونكستها التي أصابتها أمام بريطانيا ومصر، وبدأ يفكر جديا في غزو الجزائر.

احتلال الجزائر كان متفقا عليه من قبل:

بعد وقوع الصلح مع بريطانيا، أخذت تظهر في الأفق مشاريع دولية لوضع حد للجزائر ودول المغرب، ففي مؤتمر فيينا عام 1814 م ومؤتمر ايكسلاشابيل 1818 م حاولت الدول الحاضرة تدويل قضية الجزائر ودول المغرب، وطرحت أمامهم عدة مشاكل منها: ما سموه بالقرصنة المغربية، وتجارة الرقيق، وتحرير الأسرى المسيحيين الموجودين بالجزائر وبقية نيابات المغرب، ومطلب فرسان القديس يوحنا بإعادة جزيرة مالطة إليهم أو منحهم أيَّ مكان آخر في البحر المتوسط يكون مقرا لجميع الشعوب المسيحية ومركزا للتسليح والتموين تَشُنُّ منه طائفتهم الغارات المتوالية لتحطيم قراصنة المسلمين وخاصة من أهالي شمال إفريقية والجزائر بالذات.

تعيين بيير دوفال قنصلا لفرنسة في الجزائر:

وفي شهر اغسطس من عام 1815 م عينت فرنسة بيير دوفالقنصلا لها في الجزائر، وبعثت معه الهدايا التقليدية للداي، وأعلن هناك عن استعداده لتصفية ديون باكري وبوشناق اليهوديين الجزائريين. وكانت فرنسة تريد بذلك وضع حد لمطامع بريطانيا في المغرب، ولا سيما عندما تحققت بأنها كانت تعمل على التقارب مع الجزائر منذ عام 1807 م حيث تم الاتفاق بينهما على تسلم مركز القالة الفرنسي واستغلاله لمدة عشر سنوات دفعت لقاء استغلاله للجزائر مبلغ عشرة آلاف جنيه.

غير أن ذلك لم يدم طويلا حيث هدد بونابرت من جديد باستخدام القوة ضد الجزائر، ولا سيما بعد أن قَوِيَتْ شوكتُه بعقد الصلح مع روسية المعروف بصلح تيلست 1807 م، واستيلائه على اسبانيا وطرد أسرة آل بوربون وتنصيب أخيه على عرشها، وقرر أن تكون له قاعدة بحرية على ساحل الجزائر يوازن بها قواعد الانجليز بجبل طارق ومالطة.

وحدث بعد ذلك أن ظهرت الشكوك بين فرنسة وبريطانية حول مقررات ايكسلاشابيل[1]، وانعدمت الثقة بينهما، وخاصة وأن فرنسة كانت تعاني يومها من عقدة النقص أمام الدول الكبرى التي حققت الانتصار مثل انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا.

ومن الجدير بالذكر؛ أن التقارب الجزائري الفرنسي مَكَّنَ فرنسة أن تُبْرِمَ مع الجزائر ما بين 21 مارس 1619 م و5 يوليو عام 1830 م (عام احتلال فرنسة للجزائر) حوالي سبع وخمسين معاهدة ويتولى رعاية مصالح فرنسة بالجزائر خلال المدة حوالي ستة وتسعين قنصلا ومبعوثا ديبلوماسيا.

على أن كل ذلك لم يُجْدِ نفعا ما دامت فرنسة قد قرَّ رأيُها على احتلال الجزائر، فاتخذت عدة مبررات لذلك، فقد امتنعت عن دفع ديون الجزائر من القمح الذي ابتاعته منها، والمماطلة في دفع الديون التي في ذمتها وتبلغ 24 مليون فرنك ذهبا ثم خفضته إلى 7 ملايين فرنك فقط بدعوى أن مواصفات القمح ليست كما اتُّفِقَ عليها، وقبِل بذلك الداي تجنبا للصراع ورغبة في المحافظة على الصداقة الجزائرية الفرنسية (كما لو كان القوم يحفظون عهدا ويعرفون قيمة للصداقة).

---

(1)ـ مؤتمر اكس لاشابيل: انعقد في 818/11/20م بحضور الدول التي حضرت مؤتمر فيينا وأجمع المؤتمرون على توجيه إنذار شديد اللهجة إلى الجزائر باسم المؤتمر يحمله مفوضان انجليزي وفرنسي، وقد رفض الداي حسين الإنذار و اعتبره لا حدث. ومن هنا بدأت فرنسا تستعجل الأمور لإنهاء السيادة الجزائرية.

القنصل دوفال وحادثة المروحة المزعومة:

بعد تلكؤات فرنسية في قضية دفع ديون الجزائر وتلاعب القنصل دوفال المعروف بشدة المكر والخبث، ويعرف الداي وكل القناصل الأجانب المعتمدين بالجزائر ذلك عنه وحتى غرفة تجارة مرسيليا فقدت ثقتها فيه، أدرك الجميع أن دوفال هو السبب في خلق كل المتاعب والمشاكل بينه وبين حكومته، فطالب الداي من فرنسة أن تسحبه وتعوضه بآخر يكون أقدر وأجدر بخدمة مصالح البلدين. وبدل أن يجيبه وزير الخارجية الفرنسي دوماس، أغفل كل ذلك. وبينما الأمور تسير على هذا المنوال حصل في الجزائر حادث المروحة الذي ختمت به علاقات الود بين الجزائر وفرنسة، وكان ذلك آخر مظهر لتردد فرنسة في تفضيل استخدام القوة ضد الجزائر.

وحادثة المروحة وقعت كما يلي: في صباح يوم 27 أبريل عام 1827 م، وبمناسبة عيد الفطر لعام 1243 هـ، ذهب دوفال حسب العادة المتبعة لتقديم التهاني للداي، وفي اللقاء الذي حصل بينهما سأله الداي عما إذا كان صحيحا ما يشاع من حصول حرب بين انجلترا وفرنسا، ثم سأله لماذا لا يجيب وزير خارجية فرنسة على رسائله المتعددة في موضوع الديون، ولماذا لا يكتب له مباشرة؟ ألأنه شخص تافه؟ أم أنه رجل حافي القدمين؟ وبدل أن يحاول دوفال الرد بلباقة وتبرير ذلك بأي شكل ممكن، قال له بكل وقاحة: "إن حكومتي لن تكتب إليك أبدا، وإن الوزير أو الملك لا يتنازل ليكتب وليجيب من هو أقل منه بدون واسطة". فغضب الداي من هذا الكلام والتصرف الأحمق، وكانت بيده مروحة، فأشار بها إلى دوفال بقوله: اخرج يا كافر يا ملعون. فلمسته المروحة في طرف من وجهه، ومن ثم عرف الداي أن فرنسة لن تسكت عن تصرفه هذا مع قنصلها، وأنها قد تزحف نهائيا لاحتلال الجزائر.

وكان ذلك هو الواقع؛ ففي 12 مايو من عام 1830 م، وبينما كانت الحملة

الفرنسية تستعد لمغادرة فرنسة إلى الجزائر، أرسل بولينياك رسالة إلى جميع الدول المعنية أكد فيها أن الحملة ذاهبة للانتقام للعَلَم الفرنسي ووضع حد للقرصنة والاعتداءات على مصالح فرنسة في تلك البلاد، ولمن يريد الإيضاح أكثر أن يسأل، مع احتفاظ فرنسة بحرية العمل هناك.

الدوافع الحقيقة لاحتلال الجزائر[1]:

إن الدوافع الحقيقية التي دفعت فرنسة لاحتلال الجزائر منها: الحقد الصليبي، والتعصب الجنسي، وفقْدِها لمستعمراتها الواسعة في كندا بأمريكا الشمالية، وفي مصر بإفريقية، والهند بآسيا بعد صراع طويل وعنيف ضد انجلترا أشد خصومها وأعتاهم، وزين لها ساستها أن تعوضها باحتلال الجزائر التي ستجني فيها فوائد مادية ضخمة، وتحصل على خزائن الداي المملوءة ذهبا وخيرات واسعة، وتجعلها موطنا لفائض سكانها غير المرغوب في بقائهم بفرنسة من المجرمين العابثين، كما تتخذ منها سوقا لاستهلاك منتجاتها الصناعية وموردا هاما للأيدي العاملة الرخيصة غير المتوفرة في فرنسة.

الحملة الفرنسية وضخامتها:

وكما ذكرنا آنفا؛ غادرت الحملة الفرنسية ميناء طولون الحربي متجهة إلى الجزائر بتاريخ 25 مايو 1830 م، وكانت تتألف كما يلي:

370 جندي

27000 بحار

103 سفينة حربية

572 سفينة تجارية فرنسية وغير فرنسية مستأجرة تحمل المؤن والذخائر والجنود.

---

(1)ـ فصل القول في هذه الدوافع الدكتور عمار بوحوش في كتابه (التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962)، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

ووصلت طلائعها إلى شاطئ الجزائر في أوائل شهر يونيو، فنزل الجنود إلى أرض شبه جزيرة سيدي فرج غربي مدينة الجزائر بـ 28 كلم، وفي 13 من نفس الشهر تم لهم احتلال شبه الجزيرة كلها ومرتفعاتها، ونصبوا المدافع على طول الخط المواجه للطريق الذي يؤدي إلى العاصمة، تجمعت السفن الحربية وراء هذا الخط لتحميه وترد عنه كل هجوم متوقع من البر أو البحر في انتظار وصول بقية القوات التي ما تزال في عرض البحر أو في ميناء طولون.

وصول الأنباء إلى الداي حسين:

ولما وصلت أنباء الغزو إلى الداي حسين (آخر حكام الترك في الجزائر) استعد للمقاومة، وظن أنه سيقضي بسهولة على هذه الحملة، بل فسح المجال لها كي تتجمع ليقضي عليها كلها مجتمعة، وبنى ظنه على التجارب السابقة، وأخذ يحشد القوات اللازمة، وطلب إلى بايات (حكام) قسنطينة وتيطري ووهران طالبا منهم إرسال النجدات، فجاءه باي قسنطينة بقوة تبلغ حوالي 13 ألف جندي، كما جاءه بايا وهران وتيطري بنفس العدد تقريبا لكل منهما، وجمع هو حوالي 20 ألف جندي متطوع، وأسند القيادة على هذه القوات جميعا إلى صهره وحفيده الآغا إبراهيم الذي لا يعرف أي شيء في الشئون العسكرية أو فنون الحرب، وقد نصحه بعض الناس أن يعطي القيادة لغيره كباي قسنطينة الذي تبين من ملاحظاته أنه خبير بفنون القتال، ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعا.

وللتغلب على الجيش الغازي ركز الباي دفاعه عن العاصمة باستخدام المدفعية المنصوبة على الجبال، ولكن الجيش الغازي كان عليما بنقاط الضعف الموجودة في القيادة والاستعداد فتباطأ في زحفه، ثم هاجم الجزائر من سائر جهاتها برا وبحرا بقيادة ديبورمون، وحاصر قوات الباي، وتأرجح الموقف في المدينة، وعمت الفوضى، وتأزمت الحال بين الباي والأهالي، فأشاروا عليه بإجابة طلب الفرنسيين في الاستسلام، فأرسل الباش كاتب مصطفى خوجة إلى ديبورمون ليعرض عليه مشروعا للصلح بالشروط التالية:

1ـ يتنازل الداي عن كل الديون التي له على فرنسة.

2ـ يدفع نقدا كل ما يطلب منه بشأن الاعتذار عن حادث دوفال.

3ـ يعيد للتجارة الفرنسية كل امتيازاتها السابقة.

4ـ يدفع لفرنسة جميع نفقات الحملة.

ولكن ديبورمون رفض هذا العرض، وأصر على ضرورة تسليم الحصون والميناء والقصبة له، فأرسل الباي مرات يريد استكناه رأي الغازي في مطالبه ويقدمها للباي مكتوبة ليرى رأيه فيها، فقدم ديبورمون إلى الباي وثيقة بالشروط التالية:

1ـ يسلم الداي إلى القوات الفرنسية المدينة بكل حصونها وأبوابها في صباح يوم 5 يوليو 1830 م.

2ـ يتعهد القائد العام بحفظ حياته وممتلكاته الشخصية.

3ـ يُخَيَّرُ الداي بين البقاء في الجزائر تحت حماية القائد أو الرحيل إلى حيث يريد.

4ـ يُقِرُّ القائد لجميع الجنود الأتراك نفس الحماية.

5ـ يَعِدُ القائد العام بشرفه أن يحفظ حرية الدين الإسلامي وأملاك الأهالي وأن يحترم نساءهم وحرماتهم.

وبمجرد أن اتّصَلَ الباي بهذه الشروط، وَقَّعَها، وسَلَّمَ المدينةَ إلى القائد العام في اليوم الموالي 5 يوليو 1830 م على الساعة العاشرة صباحا، وغادر هو الجزائر في 10 من نفس الشهر إلى نابولي فالاسكندرية حيث قضى بقية حياته حتى توفي فيها عام 1838 م.

الجزائر المناضلة بعد الاحتلال الفرنسي

لقد احتلت القوات الفرنسية الغازية مدينة الجزائر العربية، وغادرها الوالي التركي حسين داي مع أتباعه دون مقاومة تذكر، وقبِل التسليم لمدينة الجزائر وَعَدَ القائد الفرنسي أنه سيحفظ للجزائر أملاكها وحرماتها، ولا يمس بسوء دينها ومقوماتها، ولكن ذلك لم يلبث أن تبخر، فلم يَفِ الفرنسيون بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم، وما أن مرت فترة حتى جَرَّدوا سيوفهم لاستخدامها ضد أصحاب البلاد الشرعيين، وجرت مذابح، وسالت دماء غزيرة، وانتُهكت الحرمات، واحتُلت المساجد وافتُكت من ذويها لتتحول إلى كنائس (جامع كتشاوة بالعاصمة، جامع صالح باي بقسنطينة، جامع أبي مروان البوني في عنابة، جامع المنصور بتلمسان)، وكثير غيرها تحول إلى إدارات ومصارف مالية ومرابط للخيل وثكنات عسكرية، ويحدثنا التاريخ أن مدينة الجزائر كانت تحتوي على ما يربو من مائة مسجد، فما بقي منها بعد الاحتلال إلا أربعة أو ستة مساجد فقط، وهل فَتَّ ذلك كلُّه في سَاعِدِ الجزائر العربية المسلمة المناضلة؟ إن الجواب الصحيح هو: لا، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وأَيْمَ الحق.

بدء النضال المرير ضد الغازي الجديد:

يعلم الناس جميعا أن الجزائر في تاريخها السحيق لم تَلِنْ قناتُها لغازٍ، ولا استسلمت لفاتح دون إراقة دماء وتقديم التضحيات الجسيمة منذ بدء الغزوات التي توالت عليها، ومنذ أن حاولت أمم متعددة أن تتوغل وتسيطر على أراضيها عبر القرون، فلا القرطاجنيون[1]،

---

(1)ـ أقام الفينيقيون دولة قرطاجنة في شمال افريقيا سنة 814 ق. م، وقد تناولها بالبحث الأستاذ أحمد توفيق المدني رحمه الله في كتابه (قرطاجنة في أربعة عصور).

ولا الرومان[1]، ولا الفندال[2]، ولا البيزنطيون[3]، تمكنوا من الجزائر، فقد وجدوا أمامهم أبطالا حاربوهم وأفنوهم في النهاية بجنودهم وثقافاتهم ومباديهم التي جلبوها معهم ليفرضوا على أهل البلاد اعتناقها، وباء كل شيء فيها بالفشل، ماعدا الفاتحين العرب المسلمين.

فقد كان الخلود للإسلام بفضل تعاليمه السامية، المبنية على أُسٍّ من العدالة والإخاء والمساواة، وعدم التمييز بين أفراد البشرية مهما تباينت أجناسهم وسُحَنُهُم ومنازلهم، إلا بقدر ما في كل فرد من خير ونفع لأخيه الإنسان، وما يحمله بين جوانحه هذا الفرد من نقاء سريرة وطهر ضمير وحب لله ولرسوله وصالحي المؤمنين بل وللخلق أجمعين، دون ما عنجهية ولا غرور ولا تعال ولا تفاخر بالأحساب والأنساب، وما الخلق كلهم إلا عيال الله، وأقرب خلق الله إلى الله أنفعهم لعياله والناس كلهم من آدم وآدم من تراب، ولا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4].أجل، لقد كان الإسلام وحده الذي تغلغل في الشعب، وهو الأول والأخير الذي اعتنقه الشعب الجزائري، وضحى في سبيله مدى أربعة عشر قرنا من التاريخ دون أن يتخلى عن أمجاده وتعاليمه لحظة ومنذ عرفه عن بينة وهداه الصراط المستقيم، ولن يتخلى عنه إلى يوم الدين بإذن الله، لأنه ـ وحده ـ المجسِّم للشخصية الجزائرية بتعاليمه وثقافته وحضارته وآدابه وأخلاقه.

---

(1)ـ فيما يتعلق بالاحتلال الروماني للجزائر، يمكن مراجعة كتاب (الجزائر في ظل الاحتلال الروماني)، للدكتور محمد بشير شنيتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

(2)ـ احتلوا شمال افريقيا ما بين 431 إلى 534 م.

(3)ـ امتد احتلالهم لشمال افريقيا ما بين سنة 534 وسنة 647 م.

(4)ـ سورة الحجرات، الآية: 13.

الأمير عبد القادر الجزائري في الميدان:

ولد الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني قرب مدينة معسكر في الغرب الجزائري، أي بولاية سعيدة الحالية عام 1808 م، وتوفي في دمشق بعد هجرته إليها عام 1883 م، ودفن بجوار ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي المعروف، ثم نقل رفاته إلى الجزائر، حيث دفن بمقبرة العالية وبجوار شهداء الجزائر الجديدة عام 1966 م[1].

إن رحيل الأتراك عن الجزائر جعل عرب الجزائر يعتمدون لأول مرة على كفاحهم الذاتي، دون انتظار عون خارجي، لأن كل الأقطار العربية والإسلامية يومئذ كانت تَغُطُّ في سُباتها العميق، تَضَعْضَعَتْ كياناتُها، تهلهلت أوضاعها الداخلية والخارجية، وأصبحت كلُّها تحت رحمة الاحتلال العاجل أو الآجل غير البعيد.

إن هذا الوضع أدركه بِحَدْسِه وذكائه الأمير الشاب عبد القادر بن محيي الدين عام 1832 م، بعد أن أدرك أن العبء ثقيل ويجب أن يحمله الشباب، فشرع يؤسس نظامه العسكري، ويكون كتائبه، ويسلحها. كما عني من أول وهلة بتكوين الوحدة الوطنية، فقد جمع القبائل، وجمع الأراضي، ووحَّد البلاد، مما يوفر له شروط المقاومة المسلحة، كما لم يغفل جانب تأسيس المصانع للأسلحة وتجهيزات الجيوش، ثم عمد إلى تكوين دولة ذات إدارة ونظام اقتصادي حديث، وكانت هذه الدولة عبارة عن فيدرالية تضم ثمانية خلفاء تعمل على تجديد الهيكل الاجتماعي الذي أتي على كل الامتيازات، ويقيم كيانه على أساس من العدل بين الناس بين الناسمرتكزا على تعاليم الإسلام الحنيف.

---

(1)ـ ألفت كتب كثيرة عن الأمير عبد القادر، منها: (الأمير عبدالقادر الجزائري) برونو إتيين، (حياة الأمير عبد القادر) شارل هنري تشرشل، (عصر الأمير عبدالقادر) ناصر الدين سعيدوني، (الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري) يحيى بوعزيز، (الأمير عبدالقادر الجزائري العالم المجاهد) نزار أباظة، وغيرها كثير.

وكان الجيش النظامي يتكون من متطوعين تعززهم وحدات من مختلف القبائل، ومن وحدات نظامية عصرية تحتوي على الخيالة، والمشاة، والمدفعية. وكان يحكمها وينظمها قانون محكم تلجأ إليه في كل أمورها.

وبدأت المعارك بين جيوش الأمير والغزاة، فهزم جموعهم مرات عديدة، قاتلهم بأسلوب حرب العصابات والأسلوب النظامي ولا سيما في عامي 1839ـ1841 م، ولكن الفرنسيين كانوا بجحافلهم يحاربون بضراوة.

وكان يهاجم ويدافع، ثم يسعى لإبراز شعب موحد ومتضامن ليحارب كأمة، ولقد أفلح الأمير في إبراز الشخصية الجزائرية لتعطيه بدورها المحتوى الحقيقي للمقاومة، فكان القائد المنتظر الذي تنشده المقاومة الوطنية منذ حين...

إن هذا المعنى هو الذي دفع الجنرال الفرنسي بيجو[1] أن يخاطب جنوده بهذه العبارة: "لابد أن تهاجموا القائد والوطنية العربية في موقعهما، ولابد من تحطيم قوة عبد القادر، وإلا فإنكم لن تفعلوا شيئا في افريقية".

لقد سارت الحرب في بدايتها من طرف الفيالق النظامية كما أسلفنا، وبعد أن خسرت المدن وتحطمت الوحدات النظامية لم يستسلم الأمير لليأس، بل حارب بالعصابات، الطابع الأساسي للحروب الثورية المعاصرة، وبقيت الأسلوب الوحيد للمقاومة العسكرية الممكنة، ولقد حدد الأمير بعض مباديها في رسالة بعث بها إلى بيجو قائلا:

---

(1)ـ هو توماس روبير بيجو دولا بيكونيري المعروف بالدوق دي زلي. ولد سنة 1784 بليمونج، ومات بباريس سنة 1849.رقي إلى رتبة ماريشال في جويلية 1843. حارب قبل مجيئه إلى الجزائر في إسبانيا واشتهر هناك بالعنف. تولى بيجو الحكم في الجزائر من 29 ديسمبر 1840 إلى 29 جوان 1847. سلك خلال سنوات حكمه سياسة القهر والعنف والإبادة والتدمير والتهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين.

"إننا سنحارب ونقاتل في الوقت الذي نراه مناسبا، إنك تعرف بأننا لسنا خونة، أما أن نواجه القوات التي تجرها وراءك فإن هذا لعمري الجنون بعينه، ولكننا سنلحقهم وسنهاجمهم وسنحطمهم، وعلى الطبيعة أن تقوم بالباقي".

وهكذا، وبعد قتال دام 17 عاما (1830 ـ 1847م)، كان الأمير فيها القائد الحربي والسياسي نازل خصومه بشرف وهزم جموعهم عشرات المرات، وأسس دولة حديثة. ولكن النهاية كانت للقوة الغاشمة، فقد غُلِبَ الأمير على أمره بعد لأْي وغادرها [أي بلاده الجزائر] إلى دمشق ولو إلى حين.

القائد بومعزة مع الأمير في الميدان:

لقد ظهر في ميدان القتال القائد محمد بن عبد الله المعروف ببومعزة[1]، وقاد المعركة بجانب الأمير عبد القادر عام 1845 م، وهو شاب من شبان جيش الأمير، فاعتصم بجبال (الظهرة)، وعززت وحداته قوات الأمير، ولقد اندهش المحتل الغازي أمام شجاعة كل من عبد القادر وبومعزة، مما أجبره على إلقاء أربعة عشر فيلقا (14) من جيوشه تلاحقهما عبر البلاد، وتقاتلهما في شتى الجبهات، فقد كان هذان البطلان المنبعثان من الجماهير الشعبية ينظمان الجماهيرَ المقاوِمَةَ، ويهاجمان الأعداء بسرعة خارقة ومليئة بالمفاجآت والكمائن والاشتباكات والانتصارات، مما أرغم العدوَّ أن تعترفَ قيادتُه بقيمة وبأس رجال المقاومة الجزائرية، وتصفها بهذه الكلمات:

---

(1)ـ هو الشريف محمد بن عبد الله، من أولاد سيدي أحمد بن يوسف فرع قبيلة أهل غسول قرب عين تموشنت. في عام 1840 استقر في مدينة تلمسان أين اشتغل معلما للقرآن في زاوية أولاد سيدي يعقوب التابعة.بعد احتلال تلمسان في أواخر شهر ديسمبر 1841 حمل لواء المقاومة ضد الفرنسيين.كان في بداية نشاطه يتستر بثياب التعبد، وعندما اكتشف أمره عام 1844 غادر تلمسان إلى الإسكندرية ومن هناك اتجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، واتصل بعدد من الجزائريين المنفيين والمطرودين والهاربين من الضغط الفرنسي.عاد محمد بن عبد الله إلى الجزائر لإعلان المقاومة مستغلا بذلك ظروف أحداث الثورة فرنسا 1848 والمقاومات التي كانت تندلع هنا وهناك. ظلت مقاومته تؤرق الاستعمار إلى أن توفي عام 1895م.

"لقد كانوا رجالا خارقين للعادة، ويميزون الفارس على بعد مسافات طويلة، وتجري الحوارات بينهم على مسافة بعيدة، ويتعرفون على الممرات المجهولة التي تغطيها الثلوج أو كثافة الضباب، ويبصرون ويسمعون ما لا يشاهده أو يسمعه غيرهم".

المحتلون يواجهون الجزائريين بعنف وضراوة:

بيد أن عنف هذه المعركة الطويلة أثار أحقاد المحتلين فتصرفوا بجنون في التدمير والتخريب والتقتيل وإحراق القرى، مما دعا حكومة فرنسة أن ترسل لجنة برلمانية للتحقق من المجازر الرهيبة التي بلغتها عن جيوشها في الجزائر عام 1833م، فكتبت هذا التقرير تقول فيه بعد اطلاعها على الإحصائيات السوداء خلال السنوات الأولى من الاحتلال:

"لقد أضفنا إلى الأملاك العامة المنشآت الدينية وحجزنا أملاك طبقات من السكان سبق أن وعدناهم بالاحترام، وشرعنا في ممارسة قوتنا في (سلفة إجبارية تقدر بمائة ألف فرنك ذهبي)، ولقد استولينا على الأملاك الخاصة بدون تعويض، وأحيانا ذهبنا إلى أبعد من ذلك، أي إلى المُلاَّكِ المصابين على دفع ثمن تخريب ديارهم، وشمل هذا حتى المساجد. إننا لم نحترم لا المنشآت الدينية ولا المقابر... لقد قمعنا أناسا يحملون رخص المرور، لقد ذبحنا لمجرد تهمةٍ جماهيرَ بأكملها ظهر في الأخير أنها بريئة، لقد حاكمنا أناسا اشتهروا بنزاهتهم في البلاد، وأناسا آخرين لا لشيء إلا أنهم كانوا يتوفرون على الشجاعة لمجابهة قمعنا، لقد أوجدنا حكاما للحكم عليهم، وأناسا متحضرين لإعدامهم، لقد تجاوزنا بربرية من أتينا لتمدينهم".

جنرالات الاحتلال يعترفون:

لقد كتب الكولونيل (العقيد) سانطارنو[1] يقول:

"إننا لا نطلق النار إلا قليلا، إننا نحرق الدواوير (الأرياف) وجميع الملاجئ"(5 أبريل 1842 م).

"إننا نقمع ونحرق وندمر ونخرب الديار والأشجار" (15 يونيو 1842م).

إن كلا من كافينياك في 1844 م وبيلسي في 1845 م قد أحرق المخابئ التي كان يلتجئ إليها السكان صغارا وكبارا فيذوقون ويلات الإحراق والعذاب الأليم، وإن سانطارنو نفسه يقول عن عملياته في القبائل الصغرى وعند إحراقه لأفراد قبيلة السبع:

"إنني أغلق كل نافذة، وأنشر مقبرة واسعة، إن الأرض ستغص بجثث هؤلاء، ولقد خلفت في طريقي حريقا رهيبا شمل جميع القرى، وكانت حوالي مائتين، كما أن جميع البساتين وأشجار الزيتون خربت وقطعت من أساسها".

أما العقيد مونتانياك فقد قص جريمته عندما أعدم بطلا جزائريا بالرصاص على النحو التالي: "لقد قطعت منه الرأس والمعصم الأيسر، ووصلت إلى المخيم ورأسُه على الحِرْبَة ومعصمه موثوق على البندقية... هكذا يا صديقي العزيز يجب أن تكون الحرب مع العرب".ويقول أيضا: "لابد من تخريب البلد وقمع السكان وطردهم نحو الصحراء والقفار أو نقلهم جماعات نحو جزر المركيز".

---

(1)ـ أرمان–جاك لروا سان أرنو (1801 – 1854م): جندي فرنسي، شارك ضمن الجيش الفرنسي في اليونان. وبعد عودته اشتغل في الكثير من الحرف.وعشية ثورة 1830 عاد إلى الجيش وأقام علاقة متميزة ومتفردة مع بيجو الذي عينه برتبة ضابط ليبقيا على اتصال خاصة بعد انتقالهما إلى الجزائر منذ سنة 1837، وازداد اعجاب بيجو بقدرات أرنو بعد نجاح حملته سنة 1841 وحصار قسنطينة. والثورة قائمة في باريس سنة 1848، واستطاع أن يلفت أنظار الكثيرين إليه وبخاصة لويس نابوليون الذي أعجب بطرقه الوحشية في القتال.

وأما الدوق دي رفيقو[1] فيقول: "ائتوا بالرؤوس وأغلقوا مجاري المياه برأس أول بدوي يعترض سبيلكم".

وقال بيجو أمام البرلمان عام 1840م: "أينما وجدت المياه الصالحة والأراضي الخصبة، فيجب إقامة المعمرين (المستوطنين) بدون استفسار عن أصحاب الأراضي".

لقد كان ذلك كله معلوما منذ سنة 1832م عندما أكد السيد جرار وزير الحرب الحقيقةَ التالية: "لابد من إبادة جميع السكان العرب، وأن المجازر والحرائق وتخريب الفلاحة هي في تقديري الوسائل الوحيدة الكفيلة بتركيز هيمنتنا".

على أن عبد القادر وبومعزة، بعد لأْيٍ من جهادهما، وصَبْرٍ وجَلَدٍ طال أمدُهُما، لم يسعهما في النهاية عام 1847 م إلاّ الابتعاد عن ميدان الوغى تاركين لمن بعدهما أن يواصل النضال مهما كانت الظروف واشتدت الأزمات وادلهمت الخطوب في وجه هذا الشعب الجزائري الجبار[2].

أولاد سيدي الشيخ تحت قيادة محمد عبد الله وابنه سيدي سليمان (1852 ـ 1872 م):

سيدي الشيخ قبيلة عربية من العرب الرحل يعيشون من تجارة التمور والصوف وتربية الأنعام، كانوا يسكنون في ناحية القصر بواحة (الْبَيَّضْ) على أبواب الصحراء الكبرى وتقع جنوب وهران، وكانوا رجال حرب وأباة ضيم،

---

(1)ـ هو الجنرال سفاري دوق دي روفيقو، تولى أمور الجزائر ما بين 31 ديسمبر 1831 ومارس 1833، وقبل أن يصبح حاكما عاما للجزائر كان وزيرا سابقا للشرطة. تميزت شخصيته بالقسوة والظلم، وعرفت الجزائر على عهده مرحلة تميزت بسفك دماء الأبرياء والقتل الجماعي، وقد ارتبط اسمه كسفاح بمذبحة العوفية الرهيبة في 5 أفريل 1832. لكن فشله في إخماد نار المقاومة عجل برحيله عن الجزائر، مات بعد شهرين من عزله في شهر جوان 1833م.

(2)ـ للاطلاع أكثر على مراحل مقاومة الأمير عبد القادر للاحتلال الفرنسي، يمكن مراجعة كتاب (المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر)، للأستاذ إسماعيل العربي، أو كتاب (الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري) للدكتور يحيى بوعزيز، رحمهما الله.

فلما أثقلت فرنسة كواهلهم بالضرائب المرهقة ثاروا على النظام، وهاجموا القوات الافرنسية في مراكزها في المناطق المجاورة، ثم انتظمت مختلف نواحي الجزائر، كان ذلك سنة 1864 م.ولقد كانت ثورة أولاد سيدي الشيخ ملحمة حقيقية في تاريخ المقاومة الجزائرية، فقد استطاعت أن تجند الجماهير الجزائرية من الحدود المغربية إلى النواحي القسنطينية في الشرق لمقاتلة المحتلين لمدة تزيد عن عشرين سنة من النضال المرير الشاق، مما أثار حنق الفرنسيين، فأعلن المارشال ماكماهون الذي عين واليا على الجزائر بأنه لن يحجم عن اتخاذ كل تدابير القمع بقوات ضخمة لا قِبَلَ للعرب بمقاومتها قائلا:

"ألم نقل لهم بأن الامبراطور بمجرد إشارة منه فإن فرنسة تستطيع أن تجمع 800 ألف جندي مستعدين للانتقام من عمليات الخيانة ضدها".

وإن هذا التهديد لم يمنع المعارك أن تشتد وتتوسع، ويؤدي بالتالي إلى قيام ثورات أخرى ضد الفرنسيين من عناصر جزائرية أخرى كانت تتأهب للقاء العدو منذ حين لتصليه نارا حامية جزاء غروره وصلفه وجرائمه.

ثورات أخرى في الجزائر[1]:

قامت ثورات أخرى في مختلف أنحاء الجزائر ضد الفرنسيين، ففي بلاد القبائل قامت ثورة رجل لقبوه بأبي بغلة سنة 1851، فألحقت بالفرنسيين هزائم متعددة.كما قامت ثورة في بلاد القبائل قادتها امرأة تسمى لالاَّ فاطمة[2] وذلك في 1857 م، وكانت فرنسة تجهل إذا كانت منزلة المرأة لدى الجزائريين المتعصبين تسمح لها أن تظهر أمام الملأ، فكيف بقيادة الجيوش وإعلان الثورات، ورَاعَها أن كانت لالاَّ فاطمة هذه في قمة البطولات يوم قاتلت الغزاة مدة عام كامل في ناحية جرجرة من بلاد القبائل الكبرى (ولاية تيزي وزو الحالية).

---

(1)ـ يمكن مراجعة كتاب (ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين) للدكتور يحيى بوعزيز.

(2)ـ يراجع بشأنها ما كتبه الأستاذ محمد أرزقي فراد في كتابه (جزائريات صنعن التاريخ)، نشر: دار الأمل، 2006 م.

وهناك ثورة أخرى قادتها قبائل بني سناسن على الحدود الجزائرية المغربية، وذلك بدءا من سنة 1859 م حتى عام 1863 م، وأفزعت القادة الفرنسيين، مما جعلهم يطلبون النجدة من فرنسة ليتمكنوا من دحر هذه الثورة.

ثورة المقراني والشيخ محمد بن الحداد (1869 ـ 1871 م)[1]:

كان الباشا آغا الحاج محمد المقراني يعيش في نواحي برج أبي عريريج حتى قلعة بني عباس، وكان يتمتع بنفوذ عظيم لدى أبناء قومه. وكان الشيخ محمد بن الحداد يعيش في ناحية صدوق قريبا من مدينة بجاية، وكان رجلا صالحا ورئيسا روحيا للطريقة الرحمانية إحدى الطرق الصوفية المعروفة. ولما رأيا ما كان ينزل بقومهما من ضروب الطغيان وصنوف الظلم، تحركا لإشعال ثورة عارمة على الفرنسيين. فقد قام المقراني بتوزيع كل ثروته على المجاهدين والمعوزين في المنطقة من جراء ويلات الاحتلال وحدوث مجاعة رهيبة بين السكان، ثم التحق بصفوف المجاهدين. كما عمد الشيخ محمد بن الحداد إلى إثارة حماس الجماهير بخطبه الدينية الهادفة. فانضم ما يربو عن 120 ألف مقاتل إلى صفوف المقراني، وبدأ الهجوم العام، وفي أقل من 15 يوما جَمَّدَ المجاهدون جميع مراكز القوى للجيش الفرنسي في المناطق الساحلية من أبواب العاصمة إلى مدينة القل في الشرق الجزائري.

وشهدت أكثر من عشرين نقطة استراتيجية من التراب الجزائري معارك عنيفة، مما أربك الفرنسيين فعاودوا غدرهم، وجلبوا قوات أخرى من فرنسة لوضع حد للمجاهدين في مناطق وادي الساحل (السومام). وجرت معارك رهيبة لمدة عام كامل استشهد خلالها الباشا آغا المقراني(5 ماي 1871 م)، وأُسِرَ الشيخ محمد بن الحداد ومات سجينا، وأَجْلَتْ قوات الاحتلال كل سكان المنطقة عن أراضيهم، وأعطتها للمستوطنين الأوربيين، وهاجر الكثير منهم إلى تونس وإلى الشام.

---

(1)ـ يمكن مراجعة ما كتبه الدكتور يحيى بوعزيز بشأن هذه الثورة.

على أن المقاومة تجددت مرة أخرى بقيادة وَلَدَيْ الحاج المقراني والشيخ ابن الحداد، بومزراق وعزيز بن الحداد، وتألف جيش من الثوار في وحدتين تتكون كل منهما من خمسة آلاف رجل. وقبل البدء بالهجوم وقف 10 آلاف مجاهد للصلاة قبل الانطلاق نحو المعركة، ودارت معارك بين المجاهدين وقوات الاحتلال زمنا كانت الحرب فيه سِجالا، وقد ناور بومرزاق عندما حول القتال نحو الصحراء معتمدا على قبائل النوائل والتجأ إلى توغرت، وهناك أسره الفرنسيون في يناير 1872م وأرسلوه منفيا إلى كاليدونيا الجديدة حيث بقي هناك 30 سنة.

المقاومة مستمرة:

ولم تَنْتَهِ المقاومة، ففي شهر ابريل عام 1870 قامت خلية جيدة للمقاومة في الصحراء الجزائرية، قادها المجاهد محمد بن عبد الله المعروف بأبي شوشة، فاحتلت مدينة القليعة الصحراوية، ثم استولت على ناحية متليلي بعد حصار دام عدة أيام، ثم استولت بعد ذلك على جنوب الجزائر. وفي 21 مارس 1373، وبعد ملاحقة طويلة من طرف الأعداء في الصحراء، أصيب المجاهد بوشوشة بجروح بليغة فأسره الأعداء وعذبوه بوحشية حين رفض أن يحاكم في محكمة فرنسية لا يعترف بشرعيتها ولا بأحكامها، ولما هددوه بالقتل قال لهم في السجن: "إنني لا أهاب الموت، وأعلم أنكم ستعدمونني وأنا مستعد، ولكن لوجه الله خلصوني من أسئلتكم وثِقَلِكُم الذي لا جدوى منه، أعدِموني رميا بالرصاص دون أي تأخير كي تتخلصوا مني". وهكذا كان الأمر، فقد أعدموه في 29 يونيو 1873م بمدينة قسنطينة وفي جنان الزيتون، ملتحقا بالإخوة الشهداء قبله ذيادا عن العروبة والإسلام في الجزائر الصامدة.

كما قامت ثورة أخرى في قرية مارغوريت بولاية وهران (1901م)، وثورة قوية قادتها قبيلة أولاد سلطان بجبال أوراس[1] (معقل الثورات) سنة 1919م.

---

(1)ـ حول هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب (ثورة الأوراس)، إنجاز جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة بالأوراس ـ باتنة، وكتاب (ثورة الأوراس سنة 1879) للدكتور عبد الحميد زوزو.

ولم يعرف المحتل الغاصب طعما للراحة منذ دخل الجزائر سنة 1830 م، فقد ظل المستوطنون ـ رغم كل القوى التي يملكون ـ في خوف دائم من هذه الثورات المشتعلة التي كان يضرمُ نيرانَها أبطالٌ أمجادٌ أقوياء البنية، أشداء في النزال، يحاربون بشجاعة وشرف اعترف به لهم حتى الجنرال بيجو قائد الحملة الفرنسية في بدء الاحتلال حين قال عنه:

"آه لو كنت أقاتل قوما ودِعين مخنثين لما نصحت بلادي في ان تبني معسكرا وثكنة في كل رقعة تحتلها قواتها، ولكنني أقاتل قوما أشداء محاربين لا يعتريهم الوَهَن، ولا يعرف الخوف سبيلا إلى نفوسهم، ولا يعصمني من بأسهم إلا بأس أشد وأقوى، وجيوش جرارة خليقة بكسب المعركة في النهاية".

ما هي الدواعي والعوامل التي تدفع هذا الشعب للثورة على الدوام؟:

إن هنالك عوامل شتى دفعت وتدفع هذا الشعب العربي في الجزائر أن يثأر من خصومه ويتربص بهم الدوائر، كل ما وجد فرصة لذلك، فقد أرهقته المظالم، وعملت فيه قتلا وإفناء وإفقارا وتجهيلا الأحقادُ التاريخيةُ التي يضمرها الغاصب المحتل له ولمقوماته الأساسية من دين وقيم وحضارة وتراث عريق يشعر معه في كل لحظات حياته بالعزة والكرامة، ورأى كل ذلك يُداس ويُهدم بوحشية وعنف وحماقة لا تصدر كلها إلا عن نفوس شريرة حقيرة، ولا يمارسها إلا الجناة والمجرمون الذين لفظتهم السجون ومعاقل الإجرام في فرنسة وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط التي احتلها العرب لمئات السنين ونشروا فيها العلم والمعرفة، حتى كانت صقلية كعبة لطلابها من سائر أطراف الدنيا، وكذلك كانت اسبانيا والبرتغال أو شبه جزيرة (ايبريا) كما تسمى في القديم.

الجزائر تفقد أرضها:

الجزائر بلد زراعي في الدرجة الأولى قديما وحديثا، وتبلغ مساحتها الصالحة للزراعة (52) مليون فدان، يمتلك العرب منها بعد الاحتلال 23

مليون فدان، والباقي وهو (29) مليون فدان امتلكها الفرنسيون من أصل فرنسي أو بالتجنس من اسبان، وكورسيكيين، ومالطيين، وطليان، وألمان، وسويسريين، ويهود جزائريِّي النشأة تفرنسوا بمرسوم (كريميو)[1]الوزير الفرنسي اليهودي سنة 1870م.

وقد تملك الفرنسيون والمتفرنسون ومستعمراتهم في الجزائر بقوانين أصدرتها سلطاتهم تقضي بنزع ملكية معظم الأراضي الجزائرية الخصبة على السواحل والهضاب العليا والواحات الصحراوية أيضا، وضمها إلى أملاك الدولة الفرنسية في الجزائر، وكانت تواريخ المصادرة على النحو التالي:

1ـ قرار عام 1830 م الذي أصدره الجنرال دي بورمون، ويُخَوِّلُه حقَّ مصادرة أملاك المسلمين الذين ينحدرون من أصل تركي، وأراضي الأوقاف الإسلامية والخيرية.

2ـ قرار عام 1833 الذي أصدره جانتي دي بيرسي، ويخول السلطات حق مصادرة جميع الأراضي التي ليس لدى أصحابها عقود وأوراق ثبوتية تشهد لهم بملكيتهم لها.

3ـ الأمر الصادر في أكتوبر 1844 م، والذي استباحت به السلطات لنفسها حق بيع أراضي الأوقاف الخاصة والعامة.

4ـ الأمر الصادر في 31 يوليو سنة 1846 م، ويخول السلطات الفرنسية حق امتلاك جميع الأراضي التي ليست عليها أبنية، وكذلك الأراضي التي تقيم عليها القبائل الرحل.

---

(1)ـ إسحاق كريميو (Isaac MoiseCremieux) وزير فرنسي من أصل يهودي. انتخب عضوا في البرلمان الفرنسي عدة مرات، كما تولى وزارة العدل مرات عديدة آخرها عام 1870.ظل كريميو مهتماً بالقضايا الخاصة بالجماعات اليهودية سواء في فرنسا أو خارجها، وأثناء وزارته أصدر قانونا منح الجنسية الفرنسية لأعضاء الجماعة اليهودية في الجزائر. كان كريميو نشطاً في الحركة الماسونية في فرنسا ومن أبرز قياداتها..

5ـ القانون الصادر في 16 يونيو، ويشمل مع الأراضي التي استولت عليها السلطة، 5 ملايين فدان من أراضي الغابات.

6ـ قرار مجلس الشيوخ الفرنسي الصادر في 22 ابريل 1853 م، وهو يحدد الملكية الفردية وتقسيم الأراضي الجماعية، وتحديد أراضي القبائل.

وهكذا يكون مجموع الأرض المغتصبة من الجزائريين العرب، وقُدِّمت هبات للمستوطنين الأوروبيين كما يلي:

1ـ أملاك الدولة	2.507.660 فدان
2ـ الأوقاف	3.111.130 فدان
3ـ أهلية (أميرية)	7.101.275 فدان
4ـ عامة	451.155 فدان
5ـ القبائل	3.807.555 فدان
الجملة	16.978.775 فدان

وفي عام 1871م، على إثر ثورة الحاج محمد المقراني[1]، صادرت السلطات الفرنسية ستة ملايين وربع مليون فدان من أراضي القبائل التي ناصرت المجاهد العظيم، كما غرمتهم 26 مليونا من الفرنكات، ثم باعت الأملاك التي صادرتها للأهالي من جديد واحتفظت لنفسها منها بمليون وربع مليون فدان من أجود الأراضي.

(1)ـ الشيخ محمد بن أحمد المقراني هو أحد قادة الثورات الشعبية التي شهدتها الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي. كان أبوه أحد حكام (خليفة) منطقة مجانة (الهضاب العليا). وبعد وفاة الأب عيّن مكانه ابنه محمد المقراني لكن بلقب "باش آغا". في مارس عام 1871م قدّم استقالته للسلطات الفرنسية، وفي نفس السنة قاد ثورة ضد الاحتلال انتهت باستشهاده في 5 مايو 1871م. واصلأخوه المقاومة إلى أن أوقفته السلطات الاستعمارية في 20 يناير 1872م. يُنظر كتاب (محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية) للأستاذ بسام العسلي.

7- وفي عام 1873م، صدر قانون فاريني الذي يحيل ملكية الجزائر كلها إلى فرنسة.

وبهذه القوانين والمراسيم الصادرة ضد الأهالي أصبحت الجزائر فقيرة، تتعرض للمجاعات بين حين وآخر، بينما كانت تموّن أوروبا بالقمح، وكان ذلك سبب غزو فرنسة للجزائر، كما أسلفنا في قضية ديون الباي على فرنسة والتي بررت ذلك الغزو بحادثة إهانة الداي للقنصل الفرنسي دوفال حين رفع المروحة المزعومة ليضربه بها في يوم عيد (كذا).

الاعتداء على المقدسات الدينية في الجزائر:

اعتدت السلطات الفرنسية على المقدسات الدينية في الجزائر، وقد كانت وعدت بشرفها أن لا تعتدي عليها عند الاحتلال، فجردت المساجد والمدارس الدينية من ممتلكاتها، وحولت بعض المساجد إلى كنائس وبِيَع، مثل مطرانية الجزائر (جامع كتشاوة)، وكنيسة بمدينة قسنطينة (جامع الباي)، وبيعة لليهود بجوار (جامع سيدي الكتاني)، وكنيسة وثكنة عسكرية بعنابة (جامع مروان البوني)، وبيعه بعاصمة الجزائر (جامع علي بشيني)، ومتحف بتلمسان (جامع السوق).

كما اعتدت على الشريعة الإسلامية فعطلتها، بحيث لا يُحتكم إليها إلا في أمور الزواج والطلاق والحضانة والمواريث، أي ما يتعلق بالحالة الشخصية الإسلامية، وتعتبر كل أحكامها ابتدائية، وللمتقاضين استئنافها أمام المحاكم الفرنسية التي لها القول الفصل في الموضوع. وهذا بالنسبة للعرب، أما في بلاد القبائل الكبرى (زواوة) فقد منعت أهلها من التقاضي بأحكام الشريعة الإسلامية، وأرغمتهم بقرار صدر عام 1874 م على التقاضي بالعُرف والتقاليد القَبَلية، وهدف الاستعمار من ذلك هو محاولة فصل العرب عن البربر لأنهما جنسان مختلفان في زعمه، ولكن هؤلاء وأولئك برهنوا في كل وقت انهم أمة واحدة لا يمكن تجزئتها.

وما أصدق قول الإمام عبد الحميد بن باديس في هذا المعنى:

"إن ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان"[1].

قالها عندما حاولت فرنسة عقد مؤتمر للبربر في مدينة تيزي وزو عاصمة بلاد القبائل 1936 م، فأرسل إليهم عبد الحميد بن باديس تلاميذه من أبناء القبائل، وقاوموا عقده أشد المقاومة فألغي ولم ينعقد بتاتا. وكم كانت الدهشة عظيمة يوم وجدت السلطات الاستعمارية نفسها أمام صلابة واستمساك بالدين عند هذه القبائل البربرية ـ العربية في الحقيقة، لأنها في أصلها جميعا من الجزيرة العربية على أصح روايات المؤرخين منذ أقدم العهود ـ أقوى مما عند غيرها، على الرغم من كل الأساليب الإجرامية التي اتخذتها ضدهم في تلك الجبال الوعرة.

اللغة العربية أجنبية في الجزائر:

حارب الاستعمار الفرنسي اللغة العربية في الجزائر منذ وطئت قدماه أرضها، وذلك بإغلاق مدارسها التي وجدها مزدهرة أمامه عند دخوله الجزائر، وكان عدد المتعلمين في الجزائر يفوق عدد المتعلمين في فرنسة يومئذ بشهادة المؤرخين المنصفين من الفرنسيين أنفسهم، وكانت الإدارة الجزائرية حتى في عهد الأتراك تعتمد على المثقفين بهذه اللغة الجميلة في تسيير شئون الدولة وكتابة معاهداتها الدولية ووثائقها الرسمية. وبعد الاحتلال مباشرة صُرِف هؤلاء جميعا من وظائفهم، واستبدلوهم بموظفين فرنسيين ليحلوا محلهم في الإدارة، وليفرنسوا كل شيء وجدوه أمامهم مكتوبا باللغة العربية.

وهكذا مع مر الأيام نَضُبَ مَعينُ الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، ولم يَبْقَ منها إلا بصيص هنا وهناك في أقاصي الصحراء وأعالي الجبال حيث توجد بعض

(1)ـ مجلة الشهاب، الجزء: 11، فيفري 1936. انظر كذلك: آثار ابن باديس، ج: 5، ص: 459 ـ 460.

المدارس الدينية والزوايا الخاصة، وتُعنى بحفظ القرآن الكريم، وتدريس بعض العلوم اللسانية والفقهية وعلم الفرائض وما إليه من مبادئ الحساب والفلك وغيرها. على أن هذه لم تكن بمنأى عن يد المستعمرين، فكثيرا ما أغلقوها متذرعين بأنها تُعَلم باب الجهاد من كتب الفقه وهو جريمة لا تُغتفر إذا دُرِّسَ ولو لمجرد العلم والمعرفة، وكذلك بالنسبة لعلوم الحياة إذا كانت باللغة العربية زعما منه أن العربية عاجزة عن التعبير عنها لقصورها ولكونها لغة ميتة كاليونانية القديمة.

وتبعا لهذا الغرور والازدراء من العرب وكل مقومات حياتهم، عمدت الحكومة الفرنسية إلى إصدار مرسوم جائر في 24 ديسمبر 1904 م يقضي بمنع تعليم اللغة العربية منعا باتا في مدارس الحكومة بالجزائر. كما أصدر وزير داخلية فرنسة (م. شاطودان)قانون 8 مارس 1938 م ويقضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ولا تُقبل أية وثائق تُكتب بها، كما لا يُقبل التوقيع بها في كل الأحوال، ولا تعترف الدولة بأية ورقة وُقِّع عليها باللغة العربية. ولكي تخدر الرأي العام في الجزائر، استثنت مدارس ثلاثا يُسمح فيها بتعليم اللغة العربية على طريقة قديمة بالية، كما يُسمح فيها بتعليم بعض كتب فقه الفروع على المذهب المالكي تتصل بالأحوال الشخصية الإسلامية في الزواج والطلاق والمواريث والتركات وما إليها، وفي مستوى الدراسة الثانوية، ولهدف تخريج نوع من الموظفين الإداريين في المحاكم الشرعية الإسلامية الملحقة قانونيا وعمليا بالقضاء المدني الفرنسي، حيث إن الحكم في النهاية بين المتخاصمين يَبُتُّ فيه القضاء الفرنسي ولا عكس.

الأوضاع السيئة تدفع الجزائريين إلى الهجرة:

ساءت الأوضاع في الجزائر بشكل رهيب منذ الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر سنة 1830 م، وظلت طوال 70 سنة في تأزم مستمر، فقدت أثناءها الجزائر العربية الإسلامية أرضها الخصيبة، وتهدمت معالم حضارتها، وحل المستعمرون محال أهالي البلاد، فأصبحوا الملاك الشرعيين.

فقد اغتصب العساكر الفرنسيون كل أرض أرادوها من ذويها العرب والبربر، وفي شكل إقطاع فظيع لم يحلم به هؤلاء الفرنسيون بالتجنس، والذين دفعتهم رقعة أراضيهم الضيقة في الألزاسواللورين وفي جزر البحر الأبيض المتوسط الجدبة الفقيرة، مثل جزر مالطة وصقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار، وفي سواحل إيطاليا واسبانيا. وبورقة التجنس بالجنسية الافرنسية، وحماية الكنيسة لهم، مما جعلهم يمتلكون مزارع تبلغ مساحتها الألوف من الهكتارات.

فلقد كان الكونت دي سبال في ناحية سكيكدة في شرق الجزائر يملك (عشرة آلاف هكتار) من الأرض المزروعة ومن الغابات الكثيفة بأشجار الفلين والصنوبر ليتخذ منها مغاني للقنص البري والبحري، وعندما يوجه دعوات زيارة للنبلاء أمثاله من مختلف نواحي أوروبا لتمضية أيام تسلية وزهو في هذه الإمارة الصغيرة التي ملَّكَتْها إياه الجمهورية الفرنسية قصد صرفه عن التفكير في المَلَكية التي انقرضت في فرنسة بعد الثورة الفرنسية الجبارة التي قضت على الإقطاع وامتيازات النبلاء قضاء مبرما ونهائيا.

وكذلك يقال في عدد من المستوطنين، لا يزيدون عن مائة مستوطن، كان ينعتهم اليسار الفرنسي في فرنسة نفسها (بالمائة سيد).

وهنالك إقطاع آخر مَلَّكَتْه الحكومات المتوالية لمن تريد من الشركات الفرنسية، فلقد أقطعت الشركة الجزائرية (الفرنسية في الواقع) ما يربو عن مائتي ألف هكتار لاستثمارها. وأعطت يتامى سويسريين في سهول سطيف بشرق الجزائر حوالي سبعين ألف هكتار تحت اسم (الشركة الجنيفية)، أعطتها لهم وأمدتهم بالقروض والآلات الزراعية فأثروا منها أيَّماثراءوهم بسويسرا، ولا يعرفون حتى هذه الأرض ولا أين تقع من الجزائر. وذلك تحت نوع من الأريحية والكرم الجمهوري بعد أن شردت أهلها ودفعتهم دفعا إلأى الهجرة خارج الجزائر، وفي شكل يد عاملة شاقة، هاجرت إلى فرنسة، وفي عوائل

وتجمعات هاجرت إلى تونس والمغرب، وإلى دمشق الفيحاء وأناضوليا بتركية، وبعض الأقطار العربية الأخرى مثل الحجاز وفلسطين، بدءا من هجرة الأمير عبد القادر، والشيخ المهدي الزواوي، وثوار القبائل الكبرى، والصحراء الجزائرية، وأهالي تلمسان، وثوار جبال أوراس 1919.

وهكذا تضعضع المجتمع الجزائري، وانفرطت وجدته، وتوزع على مختلف المَهاجر في العالم فرارا من الإرهاب والإبادة الجماعية. ولعل أعدل دليل على ذلك ما سجله المؤرخون الفرنسيون أنفسهم من هذه المآسي، فلقد سجل أحد المؤرخين الحادثة التالية:

"لقد جمعنا قبيلة بِرُمَّتِها إنسها وحيوانها، وأدخلناها مغارة كبيرة وجمعنا أكواما من الأخشاب والأحطاب، فَسَدَدْنَا بها المغارة، ثم أوقدنا النيران فأتت النار على كل شيء، وبعد المأساة تفقدنا المكان فوجدنا الإنسان يحتمي بالحيوان، والحيوان بالإنسان، والأطفال يتلمسون النجاة في أحضان أمهاتهم وآبائهم، الخ".وسجل مؤرخ آخر:"لقد كنا نخرج في غزواتنا من عاصمة الجزائر إلى سهول متيجة الخصبة المحيطة بالعاصمة، فنُعْمِل سيوفَنا وحِرابَنا في القوم، حتى إذا أنهيناهم بدأنا نقتسم أرضهم، محددين معالمها بالمنظار المكبر، وفي المساء نعود بعقود من الأصابع المقطوعة بخواتمها والآذان المقصوصة بأقراطها، واضعين إياها في أعناقنا كي نُرْهِب أعداءنا ونتباهى بها أمام رفاقنا الذين لم يشاهدوا المعارك معنا".

تلك بعض المآسي والفجائع التي صرعت الجزائريين، وجعلتهم يتيهون في الأرض ويضربون في أرجائها مشرقا ومغربا بعد أن دوختهم الحروب، وكادت تفنيهم إفناء كاملا، لولا ألطاف من الله جلت قدرته، ولولا أنهم ظلوا مع كل المظالم في ريفهم ومدنهم وبواديهم يتلون القرآن ويحفظونه عن ظهر قلب حفظا أصم قد لا يفهمون الكثير من آياته ومعانيه، ولكنهم يتعشقون حفظه ونقله ونشره كابرا عن كابر حتى أظهره الله على كل أخصامه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

الجزائر الجريحة تتلمس طريق الشفاء:

بعد تلك الويلات والأحداث التي اكتوت بنارها أجيال من الجزائريين، بدات الحركة تدب في جسم هذه البلاد، وشرعت تبحث عن طريق النجاة مرة أخرى، بعد أن فشلت في تحديدها مرات ومرات، فهل آن الأوان لتغير أسلوب نضالها القديم إلى أسلوب آخر جديد يحرك الهواجس والمشاعر، وينير الأفكار والبصائر، ويسعى سعيا هادفا يهدي إلى جمع الشمل وتحقيق فكرة أساسية في النضال لا يتأتى نجاح أي نضال بدونها؛ ألا وهي تحقيق (الوحدة الوطنية) تحت شعار جامع ينتظم القطر الجزائري من أقصاه إلى أقصاه.

إن ذلك هو ما أهاب بأفراد ومجموعات من الرجال خرجوا من صفوف الشعب الجزائري الكادحة ليعلنوا عن ميلاد النهضة الجزائرية الحديثة لأول مرة منذ قرن من الزمن، ولعلهم المعنيون في الأثر: (إِنَّ اللهَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)[1].

(1)ـ رواه أبو داود عن أبي هريرة، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم: 3740.

الإمام عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) في الميدان

نسبه وأصله:

الشيخ عبد الحميد بن محمد مصطفى بن باديس، من آل المعز بن باديس، وهو من قبيلة صنهاجة المعروفة في المغرب العربي بكثرة عددها وفروعها، وإليها تُنسب الطوارق (الملثمون) الذين وصلت فصائل منهم إلى تخوم الصحراء الكبرى، وكانوا من أعوان الولاة المرابطين الذين بنوا دولة المرابطين قي جنوب المغرب الأقصى، وكان لها في تاريخ المغرب والأندلس دور هام في البناء والتشييد والدفاع عن العروبة والإسلام في تلك الديار.

مولدُه ونشأتُه وتعلُّمُه:

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة (في شرق الجزائر) 1892م، ودرج في أسرة ثرية عريقة في الثراء والعلم والمعرفة والأمجاد الدينية والسياسية عبر قرون عديدة من تاريخ الجزائر.

ولما بلغ سن التعلم ألحقه والده بمدرسة ابتدائية تعلم فيها مبادئ اللغة الفرنسية، ثم ما لبث أن التحق بكتاب لتحفيظ القرآن الكريم تحت إشراف الشيخ حسن بن السوداني[1]، وكان من مشاهير حفاظ القرآن الكريم في مدينة قسنطينة العربية المحافظة على التقاليد العربية الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وإلى قيام النهضة الحديثة في القرن الرابع عشر للهجرة النبوية.

وقد برع اليافع عبد الحميد بن باديس فحفظ القرآن عن ظهر قلب ولما يبلغ سن الرشد.

---

(1)- لم أقف على ترجمته رحمه الله.

ثم ألحقه والده بالدروس المسجدية التي كان يلقيها على الطلاب في بعض مساجد قسنطينة الشيخ حمدان الونيسي[1] العالم القسنطيني المتفتح الجريء، فأخذ عنه العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية. ولكن الونيسي لم يطل به الزمن في التدريس، إذ أنه هاجر إلى الديار المقدسة، واستقر بالمدينة المنورة وبها دفن رحمه الله. أما تلميذه عبد الحميد الشاب، فما وسعه للاستزادة من المعرفة إلا أن يلتحق بجامع الزيتونة بتونس، وكان ذلك حوالي سنة 1910 م، وفي تونس أتم دراسته الثانوية والعالية والقراءات في الزيتونة وغيرها من المعاهد الخاصة، ودرس على علماء أجلاء ظل يذكر فضلهم عليه مدى الحياة، وبينهم المشائخ:

النخلي[2]،

وطاهر الحداد[3]،

وبشير صفر[4]،

ومحمد طاهر بن عاشور (مد الله في حياته)[5]،

وغير هؤلاء من أعلام تونس.

---

(1)ـ حمدان الونيسي: من علماء الجزائر المشهورين، ومن أعلام الحديث والمذهب المالكي، هاجر إلى الحجاز عام 1908م وكان يدرس بالمسجد النبوي، توفي عام 1920م.

(2)ـ محمد النخلي القيرواني (1869–1924م): علم بارز من أعلام النهضة العلمية بجامع الزيتونة، ورائد من رواد الحركة الإصلاحية الإسلامية في تونس في مطلع القرن العشرين.كرّس زهاء خمس وثلاثين سنة من عمره لغرس الأفكار الإصلاحية في نفوس طبقات متتالية من التلامذة الذين تخرجوا على يديه. ترك مجموعة كبيرة من المؤلفات القيمة.

(3)ـ لعله شخص آخر غير الطاهر الحداد المشهور صاحب كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع)، الذي هو أصغر من ابن باديس بعشر سنوات، فلا يمكن أن يكون هو المقصود هنا..

(4)ـ البشير صفر (1865–1917م): من أبرز علماء تونس، ومن القلائل الذين جمعوا بين التعليم العربي الإسلامي والتعليم الغربي الأوروبي. اشتغل بالتدريس في جامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية، وكان لسعة اطلاعه وتنوع ثقافته، يعدّ من أشهر أساتذة التاريخ العربي والإسلامي فيها. من آثاره: الجغرافية عند العرب، مفتاح التاريخ، مقالات في الإصلاح.

(5)ـ هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين، وشيخ جامع الزيتونة بتونس. ولد بتونس سنة (1296 هـ/ 1879 م)، وبها درس، وتوفي سنة (1393 هـ/ 1973 م). عين عام 1932 شيخا للإسلام، وكان عضوا في مجمعي القاهرة ودمشق. من مصنفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، التحرير والتنوير في التفسير، وغيرها. وقد كان حيا زمن تأليف الغسيري لهذا الكتاب.

عبد الحميد يعود من تونس ثم يهاجر إلى الحجاز:

عاد عبد الحميد من تونس إلى مسقط رأسه قسنطينة سنة 1912 م، فاحتفل به أهله وأصدقاؤه بعد التخرج وبعد تدريسه معيدا في جامع الزيتونة لمدة سنة كاملة.وما أن حطت به الرحال حتى حنت نفسه للالتحاق بأستاذه الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني الجزائري نزيل المدينة المنورة، فطلب من والده ذلك فوافق على سفره إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج والعمرة، ولزيارة الأماكن المقدسة في المدينة المنورة، والاجتماع بشبخه حمدان الونيسي.

وهناك بالمدينة المنورة اجتمع بعلماء المدينة المنورة: الشيخ أحمد حسين الفيض أبادي الهندي[1]،

والشيخ العزيز الوزير التونسي[2]،

ومحمد البشير الإبراهيمي الجزائري[3]، وغيرهم من أعلام المدينة.

وكانت نية ابن باديس الهجرة الدائمة بالمدينة، ولكن الشيخ أحمد حسين الفيض أبادي الهندي صارحه يوما بقوله: "أي عبد الحميد، إن مفهوم الهجرة أصبح لا يحمل معناه الحقيقي، فالهجرة اليوم يجب أن تكون من علماء الإسلام إلى حيث يفتتن الإسلام في دياره عبر العالم الإسلامي، لا من العالم الإسلامي إلى الديار المقدسة حيث إن الإسلام فيها مهما ضعف أمره فإنه في مأمن أكثر بوجود الأماكن المقدسة نفسها في منازله ومهابط وحيه، إذن فَعُدْ إلى بلدك يا

---

(1)ـ حسين الهندي: من علماء المسجد النبوي الشريف في بداية القرن العشرين، ولد في بعض البلاد الهندية وشب في طلب العلم وهاجر الى المدينة المنورة وأسس مدرسة العلوم الشرعية. وقف في وجه الثورة العربية الكبرى مما أدّى إلى نفيه إلى مالطا أولاً ثم إلى الهند وهناك تولّى رئاسة العلماء بمدينة (ديوبند).توفي عام 1358هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

(2)ـ هو محمد العزيز بن محمد الوزير، من عائلة تونسية عريقة. درس ودرّس بتونس ثم هاجر إلى المدينة المنورة ودرّسَ بها، كان يُقرئ بالمسجد النبوي، وقد شهد له الإمام محمد البشير الإبراهيمي بدقة التحرير وسعة الاطلاع. توفي بالمدينة المنورة ودفن بها.

(3)ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كان مقيما في المدينة المنورة حينئذ، ولم يكن قد عاد إلى الجزائر بعد.

عبد الحميد، فهناك رسالتك الحقيقية، وحذار أن تقبل الوظيفة فإنها قيد، واعمل حرا وفي القاعدة الشعبية، فإن هناك المادة الخام التي يمكن للعالم المسلم أن يصنع منها المعجزات". وتأثر عبد الحميد من هذه التوجيهات، فقرر العودة بعد أن يبقى بالديار المقدسة ثلاثة أشهر كان يدرِّس فيها في الحرم النبوي ضمن أسرة المدرسين فيه. وفعلا غادر المدينة المنورة مودعا شيوخَه وأساتذتَه وزملاءَه الوداع الأخير. وعاد إلى بلاده وفي نفسه أحلام وآمال عريضة سيقف حياته من أجلها بعد أن أخذ عهدا على أخيه وصديقه محمد البشير الإبراهيمي أن يلتحق به عائدا إلى الجزائر هو الآخر بغية القيام برسالة خطيرة هناك لابد منها.

عبد الحميد في الشام ومصر:

اقتنع عبد الحميد بسداد رأي الشيخ أحمد حسين الفيض أبادي الهندي، فغادر المدينة المنورة قاصدا الشام ومصر في طريقه إلى الجزائر. وحل بالشام ضيفا على علمائها وأعيان آل الجزائري بالشام (دمشق).

وفي عاصمة بني أمية وجد ضالته المنشودة حيث تعرف على جهابذة الفكر وأعلام النهضة العربية في ديار الشام، من أمثال: الشيخ طاهر الجزائري[1]، وعبد القادر المغربي[2]،

---

(1)ـ طاهر الجزائري (1852–1920م): ولد في دمشق لأسرة تعود لأصول جزائرية. عين معلماً في المدرسة الظاهرية سنة 1878. شارك في تأسيس "الجمعية الخيرية" التي عنيت بنشر التعليم واللغة العربية. عين مفتشاً عاماً للمعارف في سوريا. أسس دار الكتب الوطنية أو المكتبة الظاهرية في دمشق، كما ساهم في تأسيس المكتبة الخالدية في القدس بفلسطين. عيّن عام 1898 مفتشاً لدور الكتب العامة. هرب إلى مصر عام 1907، وبقي فيها حتى تحرير سوريا من الاحتلال التركي عام 1918، فعاد إلى دمشق وعين مديراً لدار الكتب الوطنية الظاهرية واختير عضواً في مجمع اللغة العربية. ترك مؤلفات كثيرة..

(2)ـ عبد القادر المغربي (1867–1956م): صحافي وعالم لغوي سوري. عمل في القضاء الشرعي في طرابلس وفيالأستانة. انتقل إلى مصر 1905 ونشر مقالاته في صحيفتي "الظاهر" و"المؤيد" وكان يدعو إلى تبني فكر المصلحين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. عاد إلى طرابلس 1908 بعد إعلان الدستور العثماني. أصدر سنة 1911 صحيفة "البرهان" التي استمرت بالصدور حتى نشوب الحرب العالمية الأولى 1914. اختارته السلطات العثمانية لرئاسة تحرير جريدة "الشرق" التي أصدرتها في دمشق 1916. كما اختارته الحكومة العربية الفيصلية =

ومحمد كرد علي[1]،

وعبد القادر المبارك الجزائري[2]،

ومحمد الخضر حسين[3]،

وزين العابدين التونسي[4]،

وخليل مردم[5]،

وفارس الخوري[6]،

=للنهوض بلغة الدواوين بعد رحيل العثمانيين، وكان من مؤسسي مجمع اللغة العربية في دمشق سنة 1919، كما كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ تأسيسه عام 1932.

(1)ـ محمد كرد علي (1876–1953م): صحافي وأستاذ جامعي سوري. ولد وتعلم في دمشق. غادر إلى مصر عام 1901 حيث أصدر مجلة "المقتبس". عاد إلى سوريا عام 1908 ليصدر صحيفة حملت نفس الاسم. ساهم في إنشاء مجمع اللغة العربية في دمشق عام 1919. عين وزيرا للتعليم والمعارف 1920. من كتبه "خطط الشام" و"كنوز الأجداد"..

(2)ـ عبد القادر المبارك (1881–1945م): عالم لغوي سوري. ولد في دمشق لأسرة من أصل جزائري. درس العلوم الإسلامية والأدب العربي والتاريخ. كان عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق منذ تأسيسه عام 1919. كما كان عضواً في لجنة التعريب في عهد الملك فيصل، وساهم في تعريب الكثير من المصطلحات الإدارية والعسكرية..

(3)ـ محمد الخضر حسين(1293 – 1377هـ/ 1876 – 1958م): أصله من طولقة بالجزائر، ولد بمدينة نفطة بتونس.ـ حصل على العالمية من جامع الزيتونة 1321هـ، وفي نفس العام أنشأ مجلة "السعادة العظمى". بدأ حياته العملية مدرساً بجامع الزيتونة ثم ولي قضاء مدينة بنزرت 1324هـ، وبعد عامين عين مدرساً بالمدرسة الصادقية الثانوية. عمل مدرساً للغة العربية في المدرسة السلطانية بدمشق قبل أن يستقر بالقاهرة 1339هـ حيث تجنس بالمصرية ونال العالمية من الأزهر. رأس تحرير مجلتي الأزهر (نور الإسلام 1349هـ، ولواء الإسلام 1366هـ)، كما اختير عضواً بمجمع اللغة العربية وعضواً بهيئة كبار العلماء 1370ه،ـ ثم تولى مشيخة الأزهر 1371هـ.

(4)ـ زين العابدين بن الحسين التونسي (1888–1977م): ولد في مدينة تونس، بدأ بتلقي العلم على يد أخيه العلامة الإمام محمد الخضر حسين ثم انتسب إلى جامع الزيتونة حيث حصل على شهادة التطويع في 1912. هاجر إلى دمشق أين قضى ما يزيد على ستين عاماً في مجال التربية والتعليم والوعظ والإرشاد.

(5)ـ خليل مردم بك (1895–1959م): شاعر وأديب سوري. أسندت إليه وزارة المعارف مرتين، وانتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي 1953. من أعماله "أئمة الأدب" و"الديوان"..

(6)ـ فارس الخوري (1877–1962م): سياسي سوري. عُيِّن بعد الحرب العالمية أستاذًا في معهد الحقوق في دمشق وانتُخِب عضوًا في المجمع العلمي العربي سنة 1919، تولى الوزارة عدة مرات كما مثّل بلاده لدى منظمة الأمم المُتّحدة مرّات عديدة.

وهاشم الخطيب[1]،

وكامل القصاب[2]،

والشيخ الزمرمزي الكتاني[3].

وأعلام السياسة العربية:تاج الحسيني[4]،

وهنانو[5]، وغير هؤلاء جميعا، وهم كثيرون.

---

(1)ـ لم أقف له على ترجمة.

(2)ـ محمد كامل بن أحمد بن عبد القادر القصاب (1290 – 1373هـ/ 1873 – 1954م): من زعماء الحركة الاستقلالية أيام الاحتلالين التركي والفرنسي في سورية. أنشأ (المدرسة الكاملية) بدمشق. ولاه الملك عبد العزيز آل سعود إدارة (المعارف) في الحجاز ، فأقام قليلا، واستعفى. ثم استقر في حيفا. عاد إلى دمشق، وفترت عزيمته وانزوى في بيته إلى أن توفي.

(3)ـ محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني.ولد بفاس عام 1305هـ/1887م، بدأ تحصيله للعلم بمسقط رأسه، ثم حج عام 1321هـ فأخذ عن جملة من علماء المشرق، انتقل إلى دمشق عام 1336هـ، وبها أخذ عن علماء أجلاء، ثم زار العراق والهند مرتين عام 1343هـ و1353هـ، والتقى خلالها بكبار علمائها وصلحائها وزعمائها. كان من رجال الطبقة الأولى من علماء المغرب. تولى عدة مناصب علمية، منها الإمامة والتدريس بعدة مساجد وزوايا بفاس، وعضواً بالمجلس العلمي بفاس. من آثاره:«رحلتان للهند وديوبند»، و«مذكرات شخصية»، و«ديوان جمع فيه عيون القصائد في الأمداح النبوية»، و«كتاب عقد الزمرد والزبرجد في سيرة الابن والوالد والجد»، وغير ذلك من التآليف.توفي رحمه الله بدمشق فجأة، أثناء زيارته لها، وذلك يوم 26 صفر عام 1371هـ/1952م، ودفن بمقبرة الباب الصغير بها.

(4)ـ محمد تاج الدين بن محمد بدر الدين بن يوسف الحسيني المراكشي الأصل، ولد بدمشق سنة 1890م. دخل المدارس الرسمية في دمشق، ثم درس على والده وتلاميذه علم الحديث والتفسير والعلوم العربية وأصول الفقه والعلوم الدينية.عين مدرساً للعلوم الدينية في المدرسة السلطانية بدمشق سنة 1912م، كما تولى تحرير جريدة الشرق سنة 1916.بعد انتهاء الحكم العثماني على سوريا، انتخب عضواً في المؤتمر السوري، كما درّس في معهد الحقوق. تعينرئيساً للجمهورية سنة 1928م. وقد شهد عهده قلاقل واضطرابات. توفي في 17 يناير 1943.

(5)ـ إبراهيم هنانو (1869–1935م): سياسي سوري وأحد رموز المقاومة السورية للانتداب الفرنسي. انتخب نائباً في في المؤتمر السوري 1919. أعلن الثورة على الفرنسيين عندما احتلوا أنطاكية 1919. كما تزعم الكتلة الوطنية في شمال سوريا أثناء الثورة السورية الكبرى 1925. انتخب عام 1932 زعيماً للكتلة الوطنية. قاد المعارضة للحكومة التي كانت تنوي الموافقة على المعاهدة مع فرنسا 1933. توفي بمرض السل 1935 ودفن في حلب..

كما تعرف في مصر على رجال الحركات الوطنية يومئذ من الرعيل الأول الذين شاركوا في قدح زناد الوطنية في مصر: الزعيم الخالد مصطفى كامل[1] وغيره من أبطال مصر الخالدين.

وتعرف على أعلام للعلم والدين، وأخذ عنهم وأجازوه، ومنهم الشيخ محمد بخيت[2] بالقاهرة، والشيخ أبو الفضل الظواهري[3] من علماء الاسكندرية.

ومن الطبيعي أن يتأثر بمشاهداته في مصر القديمة والحديثة، ويتزود منها بأقباس يستنير بها في طريقه الطويلة التي سيقطعها لإنهاض الجزائر العربية وليغير أوضاعها الثقافية والاجتماعية، وقد كانت تتكئ على الأوهام والخوارق وكرامات الصالحين السائدة يومئذ في الأوساط الجزائرية بصورة مدهشة، مما جعل هذه البلاد تتلمس رفع الكابوس الذي تئن تحت وطأته منذ الاحتلال المشؤوم سنة 1830 م، تحت أنواع من الاتكالية وانتظار عودة الخلافة الإسلامية لتنقذ هذه البلاد المغلوبة على أمرها من براثن الاحتلال وطرد المحتلين من البلاد ليعودوا من حيث جاؤوا.

---

(1)ـ هو مصطفى كامل باشا(1291–1326ه/ 1874–1908م)، نابغة مصر في عصره، وأحد مؤسسي نهضتها الوطنية. ولد في القاهرة. أحرز شهادة الحقوق من جامعة "تولوز" بفرنسا. كان فصيحًا، ساحر البيان.انصرف إلى مقاومة الاحتلال الإنجليزي بخطبه ومقالاته وكتبه، ودعا إلى إنشاء الحزب الوطني، وانتخب رئيسًا له طوال حياته. توفي شابًا سنة (1326هـ/ 1908م). ويبدو أن الغسيري ذكره في السياق فقط دون أن ينتبه إلى أن ابن باديس لا يمكن أن يكون قد التقى به لأن مصطفى كامل توفي قبل رحلة ابن باديس إلى المشرق.

(2)ـ محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي (1271–1354هـ/ 1854–1935م): الفقيه المفسر الأصولي المنطقي الفيلسوف المحقق المدقق. تتلمذ على كبار الشيوخ في الأزهر وخارجه. نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى في أواخر عام 1292هـ. عُين مفتياً للديار المصرية، واستمر يشغل هذا المنصب حتى 16 شوال سنة 1338 هـ، أصدر خلالها (2028) فتوى.

(3)ـ محمد أبو الفضل الجيزاوي: ولد سنة 1847، والتحق بالأزهر وتلقى علوم اللغة والدين على أكابر شيوخ عصره. عين شيخاً لمعهد الإسكندرية لفترة، ثم عين رئيساً لمشيخة الأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة وشيخاً للمالكية، ثم عين شيخاً للأزهر 1335هـ وظل بمنصبه حتى وفاته سنة 1927م.

أجل لقد أدركنا نحن بعض الذين شاهدوا الاحتلال الفرنسي في المناطق التي دخلها الفرنسيون محتلين في الخمسينات من القرن الماضي، في المناطق النائية بالصحراء الجزائرية، وفي أعالي جبال أوراس وأقصى الشرق الجزائري، أدركنا هؤلاء يتحدثون عن عودة الخلافة، بل لقد كان الأئمة في المساجد يدْعون للخليفة على المنابر يوم الجمعة بالنصر، والخليفة سجين بسالونيك (عبد المجيد)[1]، وهم لا يدرون، وعاصمة الخلافة مهددة بالاحتلال الأجنبي، والكماليون يغيرون الأوضاع في تركية العثمانية رأسا على عقب.

وما أطول ليل التِّيْه الذي قطعه جدودنا المخدرون رحمهم الله، وما أضيع قومنا في التعلق بالأمثال السوقية التي نشرها الدخيل بواسطة مبشريه ورواده الأول حتى أصبحت معلومات تنقل من مكان إلى مكان لتزيد الوضع كله سوءا. لقد كان الناس، وحتى علماء الدين ورجال الطرق الصوفية، يرددون (سلم تسلم)، (الدنيا جنة الكافر وحبس المؤمن)، (الرزق على الله وأنت على إيه؟)، (أحيني اليوم واقتلني غدا)، (اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب)، ثم يقولون عن المحتلين أيضا (لو ما حَبْهُمْ ما جَابْهُمْ)، ويظلون كذلك يسرحون في هذا الخيال.

ويأتي دور آخر يتجلى فيه استخدام الاستعمار لرجال الدين والطرق الصوفية والقضاة حتى درجة العمالة وتقديم التقارير إلى الاستخبارات الاستعمارية عن كل تحرك يقع من فرد أو جماعة لمناهضة الاستعمار. ويشهد مدير الشئون الأهلية السيد بيرك على ذلك فيقول: "لقد استخدمنا رجال الدين وكلفناهم بأسوأ ما يكلف به إنسان يحترم نفسه، كلفناهم ـ ويا للأسف ـ بتقديم تقارير بوليسية فكانوا يقدمونها عن طواعية واختيار، وحرصا على رضانا عنهم".

---

(1)ـ عبد المجيد بن عبد العزيز، الملقب بعبد المجيد الثاني(1868–1944): كان الخليفة العثماني الأخير. تولى الخلافة من 19 نوفمبر 1922 حتى 3 مارس 1924. لم يكن له في الواقع من الحكم شيء، إذ كان الحاكم الفعلي في عهده هو مصطفى كمال أتاتورك، الذي لم يلبث أن أعلن قيام الجمهورية التركية وطرد الخليفة عبد المجيد من البلاد.بعد أربعة أشهر من ذلك تم طرد عبد المجيد الثاني إلى مدينة نيس في جنوب فرنسا، ثم توفي لاحقاً في باريس عام 1944.

ولكن الله رؤوف بعباده، إذ كتب على نفسه الرحمة، ووعد بنصر من ينصره، بل وجعله حقا عليه للمؤمنين: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. فهل أزفت الساعة وآن الأوان لقيام عهد جديد في الجزائر العربية المسلمة الجريح المكدورة الصريعة من توالي الضربات على مقوماتها الأساسية التي فتَّ في ساعدها كر الغداة ومر العشي؟ أما آن لليلها أن ينجلي وينبثق فجرها عن جديد يبعث الصرعى أو الموتى من قبورهم؟..

عبد الحميد بن باديس في قسنطينة:

بعد تجوال وتطواف طويلين في الشرق العربي الإسلامي، عاد عبد الحميد بن باديس إلى قسنطينة ليضع اللبنة الأولى في صرح النهضة العلمية الفكرية الاجتماعية في الجزائر، بعد أن ارتوى من معين معارف جمعها وقدوات صالحة اقتدى بها، فلقد تأثر الرجل بالمجددين المسلمين في الدين والدنيا؛ تأثر بأفكار الأستاذ الإمام محمد عبده[2] (1849 ـ 1905) في الإصلاح الديني والاجتماعي،وتأثر بالفيلسوف الإسلامي جمال الدين الأفغاني[3] (1839 ـ 1998)

---

(1)ـ سورة الروم، من الآية: 47.

(2)ـ وُلد "محمد عبده" عام (1266هـ/ 1849م)، ونشأ في قرية "محلة نصر" بمحافظة البحيرة. تلقى دروسه الأولى على يد شيخ القرية، وعندما شبَّ أرسله أبوه إلى "الجامع الأحمدي" بطنطا.انتقل من الجامع الأحمدي إلى الجامع الأزهر عام (1282هـ/ 1865م)، فدرس الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو والبلاغة، وغير ذلك من العلوم الشرعية واللغوية. درَّس محمد عبده في الأزهر وكتب في الصحف، ثم لما قامت الثورة العرابية شارك فيها، ولما قبض عليه سجن ثم نفي إلى باريس وهناك التقى بجمال الدين الأفغاني وأسسا معا مجلة (العروة الوثقى). عاد إلى مصر وعين مستشارا في محكمة الاستئناف سنة (1313هـ/ 1895م). وفي عام (1317هـ/ 1899م) تم تعيينه مفتيًا للبلاد. تُوفي بالإسكندرية (8 من جمادى الأولى 1323 هـ/ 11 من جويلية 1905م).

(3)ـ محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأفغاني الأسد آبادي:ولد في أفغانستان. تعلم اللغتين العربية والفارسية، ودرس القرآن وعلوماً إسلامية، ثم انتقل إلى الهند لدراسة العلوم العصرية، وقصد الحجاز وهو في التاسعة عشرة لأداء فريضة الحج (1857م)، ثم رجع إلى أفغانستان حيث تقلد إحدى الوظائف الحكومية، وبسبب نزاعه مع الإنكليز انتقل إلى مصر ثم الآستانة عاصمة الدولة العثمانية، قبل أن يعود إلى القاهرة، ثم أرغمه الخديوي توفيق باشا على مغادرتها بسبب دعوته لإصلاح النظام السياسي، فغادر إلى الهند ثم فرنسا حيث التقى محمد عبده وأخرجا معا جريدة (العروة الوثقى)، ثم انتقل إلى طهران بدعوة من حاكمها ناصر =

في الإصلاح السياسي والفكر الشوري،وتأثر بالإمام محمد رشيد رضا[1] في معارفه الواسعة في فهم الشريعة وأصول الدين.

وتأثر بالقدامى من العلماء المجددين: ابن قيم الجوزية[2]،

والإمام الشوكاني[3]،

وابن تيمية[4]،

ومحمد بن عبد الوهاب النجدي[5]،

= الدين، واضطر لمغادرتها إلى روسيا بعد شيوع أفكاره، وعاد إليها مرة أخرى عام 1889 بدعوة من الحاكم الذي انقلب عليه مجددا ورحّله إلى تركيا، في عام 1892 دعاه السلطان عبد الحميد للإقامة في الآستانة، وبقي فيها إلى حين وفاته في مدينة اسطنبول في تركيا عام 1897م..

(1)ـ ولد محمد رشيد رضا في قرية من قرى لبنان تسمى القلمون، سنة 1282هـ، 1865م. التحق بكتاب القرية، ثم التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية. وبعد إغلاق المدرسة انتقل إلى المدارس الدينية في طرابلس. نال الإجازة في دراسة العلوم العربية والشرعية والعقلية عام 1897م. اشتغل بعد ذلك بالوعظ والتدريس، ثم لما ترامت إليه أخبار كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قرر الهجرة إلى مصر، وهناك أسس مجلة (المنار) عام 1898، ومن خلالها والى بث فكره الإصلاحي ونشر أفكار الشيخ محمد عبده، إلى أن التحق بالرفيق الأعلى سنة 1935م، تاركاً وراءه تراثاً كبيراً من الأعمال العلمية.

(2)ـ هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين، من كبار العلماء. ولد في دمشق (691 هـ ـ 1292 م)، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية. وتوفي في دمشق (751 هـ ـ 1350 م) وترك مصنفات كثيرة.

(3)ـ هو محمد بن علي الشوكاني اليمني (1173 ـ 1255 هـ)، إمام مجتهد، من العلماء المتأخرين. اشتهر بسعة العلم. ولي القضاء في صنعاء. تجاوزت مؤلفاته المائة كتاب في مختلف فنون العلوم الشرعية..

(4)ـ هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني الدمشقي. إمام محقق حافظ مجتهد محدث مفسر أصولي واعظ، خطيب كاتب أديب قدوة، زاهد، نادرة عصره، شيخ الإسلام. توفي سنة: 728 هـ. ألف تصانيف كثيرة جدا.

(5)ـ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي النجدي. ولد عام 1115ه الموافق 1703م. علمه أبوه القرآن والعلوم الفقهية في سن مبكرة ولما اشتد عوده قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج حيث التقى علماء مكة المكرمة ودرس على أيديهم العلوم الفقهية. توجه بعدها الى المدينة المنورة واستقر بها فترة من الزمن. قصد العراق وبالتحديد مدينة البصرة، ثم انتقل إلى الزبير، ومنها إلى الأحساء، ثم انتهى به المطاف إلى بلدة العيينة. عكف بعد ذلك على تدارس القرآن الكريم وسيرة الرسول وصحابته، وعقد النية على البدء بالعمل الدعوي ليبعد الناس عن الأعمال الشركية، وتعاون مع بعض الأمراء على تحقيق ذلك. شهد ثمار دعوته وثمار جهاده مع ابن سعود وآثار الإصلاح في الديار، وتوفى إثر مرض سنة 1206ه، 1792م.

والبشير صفر، والشيخ النخلي، وعثمان بن المكي، ومحمد الخضر بن الحسين، والطاهر بن عاشور في تونس، وغيرهم من رجال السلف الذين حاولوا غربلة الكتب الإسلامية مما علق بها من الأساطير والإسرائيليات الدخيلة.

كما تأثر من جهة أخرى بالمصلحين الاجتماعيين أمثال: عبد الرحمن الكواكبي[1] (1848 ـ 1902 م)،

والطاهر الحداد التونسي[2] (1870 ـ 1946 م)،

وعبد الحميد جاويش المصري[3] (1877 ـ 1929 م)،

والأمير شكيب أرسلان اللبناني[4] (1870 ـ 1946م).

---

(1)ـ عبد الرحمن الكواكبي: عالم من علماء الشام، وُلد في مدينة حلب سنة (1265هـ–1849م) من أسرة معروفة بالعلم والفضل، وشغل عدة وظائف، وجلب مطبعة إلى حلب، وأنشأ فيها جريدتين.رحل إلى القاهرة، وهناك شرع في الكتابة في الصحف المصرية باسم مستعار هو (الرّحالة ك)، وقد جمع تلك المقالات في كتابين هما: (أمّ القرى) و(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).. مات الكواكبي سنة (1320هـ–1902م) ودفن في القاهرة.

(2)ـ لم أقف على ترجمته، وهو شخص آخر غير طاهر بن علي بن بلقاسم الحداد (1317–1353هـ/1899–1935م) مؤلف كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع".

(3)ـ عبد العزيز جاويش: أحد رواد الإصلاح والعمل الوطني في مصر وأحد مناصري الخلافة العثمانية. ولد في الإسكندرية سنة 1876 م، وتعلم بالأزهر، وتخرج في دار العلوم، واستكمل تعليمه في بريطانيا، وعمل أستاذا في جامعة أكسفورد. هاجر إلى تركيا، وبعد أن سقطت الدولة العثمانية عاد إلى القاهرة ليعمل في التعليم. توفي سنة 1929م.

(4)ـ هو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، تعلم في بلدته الشويفات بلبنان مبادئ القراءة والكتابة والقرآن، ثم دخل مدرسة الأميركان، وتعلم فيها مبادئ اللغة الإنجليزية، ثم انتقل إلى بيروت ليتلقى دروسه في مدرسة الحكمة المارونية، والتي كانت مشهورة بتعليم أصول اللغة العربية، والفرنسية، والتركية. نال شهادتها سنة 1886. ثم انتقل إلى المدرسة السلطانية لتعلم اللغة التركية والفقه، كما حضر درس مجلة الأحكام العدلية على الإمام محمد عبده، ولازمه في مجالسه الخاصة.سافر بعد ذلك إلى باريس وهناك تعرف على الشاعر الكبير أحمد شوقي، كما تعرف على جمال الدين الأفغاني في الآستانة، واتصل بالشيخ محمد رشيد رضا وامتدت صداقتهما حتى وفاة الشيخ رشيد. لعب دورا كبيرا في نصرة القضايا العربية والإسلامية. عاد شكيب أرسلان إلى بيروت في 30 أكتوبر 1946، وما لبث أن توفي ليلة الاثنين في 9 ديسمبر 1946.

ولا غرو أيضا أن يتأثر بالثورات العربية المسلمة في المغرب والمشرق على السواء: الثورة السورية 1920 م، وثورة الأمير عبد الكريم الخطابي[1] في الريف بالمغرب 29 يوليو 1920 م، وثورة الزعيم الخالد عمر المختار الليبيبعد احتلال ايطاليا لليبيا سنة 1911 وقد دامت ثورة عمر المختار 20 عاما.

إن كل هذه الأحداث وغيرها لم يكن عبد الحميد بن باديس بعيدا عنها وعن نتائجها سلبا وإيجابا، ولكن ماذا يرى للجزائر بعد ذلك؟.

"لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها":

فكر عبد الحميد في هذه الكلمة المنسوبة إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله، فاستنتج منها دستوره الإصلاحي الديني الاجتماعي معا. ولكن من أين يبدأ؟ لقد جاء في كلام الحكيم الخبير: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2]، فليكن عبد الحميد واحدا من هؤلاء إذن..

بدؤه التدريس في قسنطينة:

لقد خطَّطَ لتدريسه، فاستعار مسجدا صغيرا في حي عربي شعبي متواضع جدا هو حي سيدي راشد بقسنطينة، كان تابعا لعائلة ابن مالك، هو مسجد سيدي عبد المؤمن، وفكر في طلابه من أين يستقدمهم؟ فارتأى أن الشعب العربي في الجزائر يعاني من الفرقة والطائفية والإقليمية، وكلها من أوضار

---

(1)ـ عبد الكريم الخطابي (1880–1963): أحد أشهر القادة المغربيين. ولد في أغادير عام 1880. قاد الكفاح ضد الاحتلال الإسباني، واشتهر بعد الحملة الشهيرة التي قادها عام 1921 ضد الاحتلال الإسباني للمغرب. نفته السلطات الفرنسية إلى إحدى مستعمراتها لمدة 21 عاما. اعتبر منذ عام 1948 القائد الوطني المعارض للاستعمار الأوروبي في شمال أفريقيا. عاش في جنوب فرنسا فترة قبل أن يتوجه إلى مصر بدعوة ملكية حينذاك وبقي هناك حتى وفاته بالقاهرة عام 1963.

(2)ـ سورة التوبة، من الآية: 122.

الاستعمار، ولذلك فهو في حاجة إلى جمع الشمل بصورة مصغرة أولا، ولتكن في حلقة تدريسه هذه. فقام بجولة في ربوع الجزائر كلها، وتخير طلابه القليلين من كل نواحي الجزائر: من السواحل، والجبال، والهضاب العليا، والصحراء الجزائرية، عربهم وبربرهم على السواء، واستطاع أن يجد من أفاضل الشعب من ساعده على إلحاق أبنائهم بهذه المدرسة المصغرة. ولما حضروا اشترط عليهم شرطا واحدا وأساسيا وهو أنهم بعد التخرج يعودون إلى قراهم ومدنهم وريفهم ليُعَلِّموا كما تَعَلَّموا ـ إذا قَدَروا ـ مجانا وبدون أي مقابل، وأن لا يقبلوا وظيفة حكومية مهما كانت مغرية وسامية وقال لهم: "نحن قوم مبدؤنا في الحياة (اشرب وشرِّب) لا (اشرب واهرب)، ومن يجد نفسه غير أهل لهذا فليتدبر أمره من الآن".

وبدأ الرجل التدريس بأسلوب جديد، وفي كتب جديدة لم يكن الناس يدرسونها لبعدهم عنها أو لخوفهم من الاستعمار الذي كان يُحَرِّم حتى في بعض الزوايا العائدة لرجال الطرق الصوفية تعليمها، مثل مقدمة ابن خلدون[1] في علم الاجتماع، وتاريخ الإسلام السياسي، وكتاب الجهاد من الكتب الفقهية، كما كان يحظر على الناس تدريس الرياضيات والعلوم الحديثة باللغة العربية لأن ذلك يتعارض مع مبدأ السيادة للغة الرسمية الفرنسية بطبيعة الحال.

---

(1)ـ هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس سنة 732هـ/1332م، أخذ عن أبيه الذي كان عالما وعن عدد من العلماء المعاصرين له في تونس، فدرس العلوم الشرعية و اللغة العربية، والعلوم الطبيعية والرياضية وعلوم المنطق والفلسفة. اختلى أربع سنوات (776–780هـ) في قلعة بني سلامة بتيهرت. وفي تلك الخلوة كتب مقدمة تاريخه التي اشتهرت بمقدمة ابن خلدون. عاش بعد ذلك مدة طويلة ارتحل خلالها إلى الشام ومصر حيث ولي منصب قاضي القضاة المالكية في مصر عدة مرات، وتصادف أيضا وجوده في دمشق عندما حاصرها المغولي تيمورلنك، عاد بعدها إلى مصر وتوفي فيها سنة 808هـ/ 1406م.

أجل، إن عبد الحميد درَّسَ كل الكتب المحرمة، كما أحيى كتب التدريس القديمة التي كانت الجزائر لا تصل قدرتها العلمية إلى تدريسها؛ فقد درَّس (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني[1]، والمغني لابن هشام[2]، وسيرة ابن هشام[3].

ودَرَّس الكتب الأدبية الأربعة الأمهات:

الأمالي لأبي علي القالي[4]،

والبيان والتبيين لأبي عثمان عمر الجاحظ[5]،

والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي[6]،

والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد[7].

---

(1)ـ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ولد في جرجان ببلاد فارس في مطلع القرن الخامس للهجرة.. كان منذ صغره محبًا للعلم، فأقبل على الكتب والدرس، خاصة كتب النحو والأدب والفقه. قضى عبد القاهر حياته بين كتبه، يقرأ ويؤلف، وترجع شهرة عبد القاهر إلى كتاباته في البلاغة، فهو يعتبر مؤسس علم البلاغة، أو أحد المؤسسين لهذا العلم. توفي سنة 471هـ.

(2)ـ هو ابن هشام النحوي المعروف، صاحب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، وغيره من الكتب النفيسة.

(3)ـ هو ابن هشام مؤلف السيرة النبوية الشهيرة.

(4)ـ أبو علي إسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيذون البغدادي القالي.ولد عام 280هـ. درس العربية على يد ابن دريد وأبي بكر بن الأنباري وابن درستويهونفطويه. خرج من العراق واستقر في قرطبة عام 330 هـ. توفي ودفنبها في ربيع الآخر سنة 356هـ.

(5)ـ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري.إمام البلاغة المشهور وصاحب الكتب المتعة، من أشهرها كتاب الحيوان والبيان والتبيين وغيرهما توفي سنة255هـ وقد نيف على التسعين سنة.

(6)ـ ابن عبد ربه الأندلسي (246–328هـ/ 860–939م): أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير بن سالم أبو عمر. الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. كان شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. وكانت له في عصره شهرة واسعة وهو أحد الذين أثْروا بأدبهم بعد الفقر.

(7)ـ إمام النحو أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، البصري، النحوي، الأخباري، صاحب "الكامل". كان إماما، علامة، جميلا، وسيما، فصيحا، مفوها، موثقا، صاحب نوادر وطرف. ترك تصانيف كثيرة، توفي في أول سنة 286هـ.

كما دَرَّس كتبا قيمة في علم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ، كمقدمة ابن خلدون، وحضارة العرب لغوستاف لوبون[1]، وكتب السيرة المتعددة، والعروة الوثقى للإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وكان يأمر تلاميذه بحفظها عن ظهر قلبوكتب الأمير شكيب أرسلان،وكتب أحمد أمين[2]، وعبد العزيز البشري[3]، ومجلة (الرسالة) و(الثقافة)، ومدارسة الدواوين الشعرية وتاريخ الأدب العربي، وكتب أدباء المهجر، وكان بعضهم يؤثر نشر قصائده في مجلة "الشهاب" التي كان يصدرها عبد الحميد بن باديس في مدينة قسنطينة، ومنهم الأديب العربي زكي قنصل[4]، فقد نشر عدة قصائد له، ومنها هذه المقطوعة المعبرة عن واقعنا الأليم في تلك الأيام، تحت عنوان (ما زال تحت ظلام الذل منهجنا):

ما زال تحت ظلام الذل منهجنا حتى تساوى لدينا الماس والصدف

كم خائن بيننا يلقاه حفوتنا وكم لئيم بأي الشكر يكتنف

---

(1)ـ غوستاف لوبون Dr.G.Lebon (1841–1931م): طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارة الشرقية. من آثاره: حضارة العرب، سيكولوجية الجماهير، السنن النفسية لتطور الأمم، روح التربية، روح السياسة، فلسفة التاريخ.وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية.

(2)ـ أحمد أمين إبراهيم الطباخ (1304–1371هـ/ 1886–1954م): مؤرخ الفكر الإسلامي وكاتب موسوعي مصري. عمل في القضاء والتدريس في الجامعة في كلية الآداب ثم قام بإنشاء مجلتي الرسالة والثقافة. أصبح عضوا بمجمع اللغة العربية (1359هـ/ 1940م)، وكان قد اختير قبل ذلك عضوا مراسلا في المجمع العربي بدمشق منذ (1345هـ/ 1926م)، وفي المجمع العلمي العراقي. أصيب أحمد أمين قبل وفاته بمرض في عينه، ثم بمرض في ساقه فكان لا يخرج من منزله إلا لضرورة قصوى، ورغم ذلك لم ينقطع عن التأليف والبحث حتى توفي في (27 رمضان 1373هـ/30 مايو 1954).

(3)ـ عبد العزيز البشري: ولد سنة (1303هـ/ 1886م) وتوفي سنة (1362هـ/ 1943م). نشأ في بيت علم، درس في في الأزهر، ومارس الأدب فلقي فيه ذاته، وخص له حياته، ولكن عمله بين القضاء والإدارة حد من نشاطه الأدبي وقيّده، وقصره على المقالة.

(4)ـ زكي قنصل: ولد في بيرود (النبك– دمشق) عام 1916 وتوفي سنة 1994. تعلم مبادئ العربية والفرنسية ثم هاجرإلى الأرجنتين، وعمل في التجارة.

إنـا نكبـنا بحلـم كلـه وهـن ... يا ليتنـا لم نكـن بالحـلم نتصـف
مـا قابلـت أمـة بـالعفو مجرمـها ... إلا وقد ضاع فيهـا الحـق والشـرف

أو هذه النفحة الغنائية الخالدة تحت عنوان (يا لواء الحق):

يـا لـواء الحـق فيئنـي تـزد ... في مضـائي وتسـدد قلمـي
أنـا مـن أوقفـت أيـامي علـى ... خدمـة العـرب وكـبح الظـلم
إن يكـن عيسـى نـبي فأنـا ... أحمـدي الخلـق قرشـي الـدم
بـدوي الـروح والقلـب وهـل ... يجهـل المجـد بنـاهُ الخـيم
وهـم مـن نسـجوا أعلامـه ... في البـوادي دون كـل الأمـم

تلك كانت روح عبد الحميد بن باديس في اختياراته للموضوعات التي يدرِّسُها، والتي يوجه طلابه لتقفي آثارها والسير على منوالها في أمور الدنيا والسياسة والاجتماع.

أما من ناحية حرصه على إحياء اللغة العربية وتقويم ألسنة طلابه عليها، وهم أعاجم وعرب على السواء، فقد كان يلزمهم بحفظ كتب متن اللغة، كالألفاظ الكتابية للهمذاني[1]، وفقه اللغة للثعالبي[2]، ومثلثات قطرب[3]، وغيرها. كما كان في تدريسه لكتب الفقه الإسلامي يجنح إلى البرهنة وأخذ

(1)ـ عبد الرحمن بن عيسى بن حمّاد الهمذاني. كان شيخاً جليلاً و إماماً في اللغة والنحو، إلى جانب كونه شاعراً فاضلاً، له مصنفات قليلة منها هذا الكتاب المذكور.

(2)ـ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الذي يُعرف بأبي منصور الثعالبي النيسابوري، أديب عربي لقب بالثعالبي لأنه كان فرّاء يخيط جلود الثعالب ويعملها. كان واعية كثير الحفظ، فعرف بحافظ نيسابور، وأوتي حظا من البيان برّ فيه أقرانه، فلقب بجاحظ زمانه، وعاش بنيسابور حجّة فيما يروي، ثقة فيما يحدِّث، مكينا في علمه، ضليعا في فنه.

(3)ـ هو الإمام اللُغوى الشهير أبو على محمد بن المستنير (المتوفّى 206 هـ) صاحب المؤلفات النحوية واللغوية الشهيرة مثل: المثلث فى اللغة، كتاب الأزمنة، مجاز القرآن، إعراب القرآن، خلق الإنسان، العِلَل النحوية.. وغيرها.

الأحكام من الكتب وكتب الصحاح في السنة النبوية، ولم يغلق باب الاجتهاد والقياس، ولا خشي من تبعات الخرافيين في تفسير القرآن الكريم، إذ يقولون أن صوابه خطأ وخطأه كفر، بل فسر القرآن كله من أوله إلى آخره في دروس عامة، كما ختم موطأ مالك في الحديث في احتفالات أقامها الشعب كانت رائعة جدا، وذلك في سنة 1938م[1].

منهجه العلمي:

وكانت طريقته في التفسير للكتاب والسنة؛ الاعتماد على النصوص والتآويل التي صح نقلها وتتلاءم مع العقل الذي مجده الله حين قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2]، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾[3]. وكان يصاول الرواة والقصاصين فيما حشوا به كتب التفسير من الاسرائيليات والأساطير الخيالية التي لا يقبلها نقل صحيح ولا عقل راجح.

وكان يحاول غربلة كتب العقيدة مما أدخلته الفلسفة اليونانية من قواعد على الفطرة العربية التي ظلت بريئة من كل زيف وشعوبية قبل ظهور تلك الآراء والفلسفات التي لا تُقبل على علاتها وكما رآها قدماء اليونان وغيرهم ممن نقلنا عنهم مبادئنا في المنطق والتصوف وما وراء الطبيعة.

وكان الأستاذ الرئيس حربا دائمة على الضعف والخَوَر والذِّلَّة والصَّغَار وعبادة الوثن، إنسانا كان أو مخلوقا طبيعيا رهيبا في نظر العامة. بينما الإسلام بشريعته السمحة أطلق العنان للفكر ليتدبر في ملكوت الله، وأن يبني عقيدته على دراسة نفسه والأكوان حوله، وأن يزن الأمور بميزان الفكر العربي الخالي من المبالغات والتآويل المشطة التي لم تكن كثيرة حتى في الجاهلية الأولى، فكيف بها بعد مجيئ الإسلام

---

(1)ـ تُنظر تفاصيل الاحتفال بختم شرح الموطأ في مجلة الشهاب، ج: 7، مج: 15، رجب 1358هـ، أوت 1939م.

(2)ـ سورة يوسف، الآية: 2.

(3)ـ سورة سبأ، من الآية: 46.

النبراس الوضاء الذي ينفذ إلى أغوار النفس فينير جوانبها المظلمة حتى يتبين لها أنه الحق الصمد الذي لا إله إلا هو بارئ النسم وهاديها إلى خير الدارين، وبطرق غاية في العقلانية، بل لقد ذهب بعض أيمة الدين (أبو حنيفة)[1] إلى أن الإيمان بالتقليد لا يقبل من صاحبه، بل على المرء أن يستخدم عقله حتى يصل إلى معرفة وجود الله عن طريق البحث والاستقصاء في كل شيء له فيه آية تدل على أنه الواحد القهار الرؤوف الرحيم البر بعباده الذين خلقهم ليكرمهم دينا ودنيا.

وكان الرئيس ابن باديس (رحمه الله) في فهمه للشريعة على نسق عال جدا في تبيان مقاصد القرآن والشريعة الغراء، حتى قال الشاعر الجزائري محمد العيد[2] يصف عبد الحميد بن باديس في فقهه للشريعة البيت التالي الذي يقارن فيه بين الأستاذ الإمام محمد عبده وعبد الحميد بن باديس:

وأشبهت في فقه الشريعة عبده[3]

أجل، لقد استفاد عبد الحميد بن باديس من أحداث الزمن، وفحص كتب الدين مما علق بها، وكان يهدف في تدريسه كالعالم المسلم اليقظ، إلى محو كل أثر للإرهاقات الذهنية والدينية الدخيلة على الإسلام، وشنَّ عليها حربا عوانا، لم يهادن أصحابها يوما. فلقد كان الوعاظ قبله عوام جهالا لا يحسنون تقديم أي علاج لأي مشكل من مشاكل العصر، كانوا يزهدون الناس في الدنيا ولا

---

(1)ـ هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطة التيمي التابعي (80 ـ 150 هـ). أحد المجتهدين المشهورين، وإليه ينسب المذهب الحنفي. من كتبه: الفقه الأكبر..

(2)ـ محمد العيد آل خليفة "حمو علي محمد العيد": من مواليد: 1904.08.28م بعين البيضاء من عائلة دينية محافظة، حفظ القرآن الكريم وتلقى أصول الدين عن علماء البلدة، انتقل إلى تونس (جامع الزيتونة) للتحصيل، تولى إدارة مدرس الشبيبة الإسلامية بالجزائر العاصمة وغيرها من المدارس الأخرى، اعتقلته السلطات الفرنسية، ووضع تحت الإقامة الجبرية في بسكرة. كان يلقب بـ: شاعر الشباب، شاعر الجزائر الحديثة، شاعر الشمال الإفريقي. توفي بمدينة باتنة عام 1979م.

(3)ـ الشطر الثاني من البيت "فهل كنته أم (عبده) فيك ينشر؟". انظر القصيدة كاملة في: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، للإمام ابن باديس، نشر: وزارة الشؤون الدينية، ص: 461 ـ 464.

يدرون أن الدنيا مطية الآخرة، فقد كان الواحد منهم يقف على المنبر ليتلو صحفا تحتوي على خطب أنشئت في عصر انحطاط المسلمين، ويبكون أثناءها أو يتباكون وكأن القيامة قامت. وكانوا يعلمون الناس أنواعا من الخضوع للمخلوقات الحية والميتة حتى درجة العبودية والاستخذاء، شرعوا تقبيل اليد وتقبيل الرأس والانحناء للمخلوق، وأشاعوا فرض الطاعة وعمموها لتشمل الحاكم المستعمر بدعوى أنه من أولي الأمر (دون إكمال منكم).

وإذْ رأى ابنُ باديس كلَّ ذلك استحدث مقاومة مضادة: (تصافحوا ولا تناطحوا)، (الهالك من قال هلك الناس)، (لنعول على أنفسنا ولنتكل على الله)، (الحق والعدل والمؤاخاة للذين يقومون بجميع الواجبات)، (الأمة بخير لكن علماءها ليسوا على خير).

وقالوا: (الدنيا جنة المؤمن وحبس الكافر)، [فرد عليهم]: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1]. وقالوا: (اصرف ما في الجيب يَأتيك ما في الغيب)، فرد عليهم بالتالي: (إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) [عمر بن الخطاب]. وقالوا، ونسبوا ذلك إلى الإمام عز الدين بن عبد السلام (وحاشاه): (إن هذا الزمان زمان السكوت يجب الاكتفاء فيه بأدنى القوت وانتظار الموت). وقال عبد الحميد: إن شعارنا (قاوم تقم) لا (سلم تسلم)، وإن هذه الأمة أمة خالدة ولن تموت لأنها تريد الحياة، ومن أراد الحياة فلا بد أن يحيى بعون الله، وكذب الخراصون المستعمرون وعملاؤهم والدجالون من سماسرة الأديان عندما يقولون (لَوْ مَا حَبْهُمْ مَا يُجِيبْهُمْ) أي الفرنسيين، فهل يوجد عاقل يقبل مثل هذه الأمثال السوقية التي طالما فَتَّتْ في ساعد هذه الأمة بدعوى أنها حكم وعظات ربانية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

---

(1)- سورة الأعراف، من الآية: 32.

ذلك هو العهد الذي وجده عبد الحميد بن باديس أمامه فناقشه، ثم هاجمه، ثم أجهز عليه هو وشيعته فقضوا عليه قضاء مبرما.

صورة من النضال الفكري لعبد الحميد وتلامذته:

وقد يجمل بنا أن نعرض صورة من النضال الفكري أثناء هذه الفترة بين عبد الحميد وتلامذته من جهة وخصومهم من جهة أخرى؛ فالأستاذ حمزة بوكوشة[1] المحامي الشاعر يهزأ بهؤلاء وسخافاتهم فيقول في مقطوعة شعرية كالتالي، وقد برم من الإقامة في قريته التي كان أهلها مخدرين يومئذ:

برمت من الإقامة في بلاد ... يؤوّلُ أهلها الكفرَ الصريحا

يقودهم المدجل للزوايا ... ويأخذ منهم الثمن الربيحا

ليعطيهم من الجنات قصرا ... ويمنعهم إذا قدر أتيحا

ونافسهم من العلماء قوم ... بترك الدين يشرون المديحا

ويتصدى لهم محمد سعيد الزاهري[2] أحد تلاميذ ابن باديس ليشدد النكير على هؤلاء ويقسو عليهم قساوة بالغة حين يقول، وذلك بعد أن ألقى قصيدة عصماء في مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تأسيسها سنة 1931م:

---

(1)ـ حمزة بن البشير شنوف. ولد عام 1909 بالجزائر. حفظ القرآن صغيرا، وعلمه والده مبادئالفقه. في سنة 1923 التحق بجامع الزيتونة بتونس حيث قضى ست سنوات، وأحرز عام 1930 شهادة التطويع، وهي آخر ما كان يمنح للطلبة وقتئذ. درس بعد ذلك الحقوق في جامعة الجزائر وتخرج عام 1971. عمل مستشاراً بالغرفة المدنية، ثم محامياً منذ 1980. عضو في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها عام 1931، وقد شارك في جميع نشاطاتها تدريساً ومراقبة وتحريراً في جرائدها. توفي رحمه الله سنة 1994م.

(2)ـ ولد سنة 1899 بولاية بسكرة، حفظ القرآن في كتاب قريته، ثم انتقل إلى قسنطينة أين درس على يد ابن باديس، ومنها إلى جامع الزيتونة. اشتهر بأسلوبه الجريئ وسبقه إلى معالجة موضوعات شائكة. نشر معظم إنتاجه الفكري في صحافة المشرق العربي، توفي سنة 1956.

حي العروبة في جمعية العلما ... وحي ويحك فيها الدين والشيما
تدعو إلى الله عن علم وبينة ... لا كالذين إلى جهل دعوا وعمى
جمعية جمعت من بعد ذاك على ... القرآن والسنة الغراء أهلهما

ثم يقول عن الخصوم:

كانوا طوائف شتى كل طائفة ... تطيع شيخا لها في كل ما زعما
إن قال إني ولي صدقوه وإن ... هو ادعى الغيب قالوا أحكم الحكما
وإن تعلم بعض الشيء تهجية ... قليلة هتفوا يا أعلم العلما
وإن هو ارتكب الفحشاء فاضحة ... فلا محالة معذور وقد أثما
أو احتسى الخمر قالوا إنها عسل ... ولا غرابة في هذا ولا جرما
أو ادعى أن خير الخلق يخدمه ... فما اعتدى عندهم فيها ولا ظلما
أو لم يصل رأوه حسبما زعموا ... يقيمها إذ يزور البيت والحرما
إذا بكى حسبوا الأيام باكية ... ويضحك الدين والدنيا إذا ابتسما
في كفه المنع والإعطاء عندهم ... والخير والشر فيما شاد أو هدما
يا رب أبله معتوه يسوقهم ... وهم له تبع إلى لظى غنما
هم السوائم حقا غير أنهم ... لم يأكلوا مثلها الحلفا والرتما
لولا الأولى ابتدعوا في ديننا طرقا ... لما تشتت أمر الدين وانقسما
لولا المشائخ ما رأيت أمتنا ... تلقى المصائب والأرزاء والنقما

على أن هذا الشاعر نفسه درس الوضع العام في الجزائر قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فحمل حملة أخرى على المجموع العام في الشعب الذي كان مخدرا يغط في نومه يومئذ فوصفه بهذا الوصف المجحف اليائس

القانط، ذلك الذي لا يمت إلى أستاذه عبد الحميد بن باديس بصلة حتى في أشد أوقاته حرجا ومناوأة من طرف الاستعمار والجهلة من أدعياء الدين والمذاهب الصوفية وغيرها لدرجة الاعتداء عليه بغية اغتياله.

يقول الزاهري في قومه (حسب رأيه):

ضـقت ذرعـا بهـذا الوجـود … وبقـوم طـول الزمـان رقـود
أوجـه مثـل أوجـه النـاس لـكن … خشـب مـن ضـلالة وجمـود
قـد تقلبـت في الجزائـر لـم أتـ … ـرك قريبـا منـها ولا مـن بعـيد
فـإذا أمـة تطيـع الأولـى عنـ … ـدهم الـدين قصـعة مـن ثريـد
وإذا العلـم في الجزائـر لا يجـ … ـلب نفعـا للعالـم الصنـديد
هـو في قومـه مقـيم علـى الضيـ … ـم مقـام المسيـح بـين اليهـود
هـذه الحـال في الجزائـر لا تبـ … ـغوا من الشـرح بعـد ذا مـن مزيـد

وهذه صورة من الكفاح الاجتماعي الذي كانت تقوده جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بكتابها وشعرائها وشيبها وشبانها، رجالها ونسائها، ووجدت فيها كل حركة سياسية ظهرت فيها بعد ضالتها المنشودة وفكرتها الأصيلة في تغيير الأوضاع في الجزائر، وإن كان ذلك ما يزال في حاجة للكثير الكثير من النضال المرير لتخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور، فلتمض الثورة الفكرية، ولتسرع الخطا، ولا ريب أنها واصلة ـ ولو بعد حين ـ هدَفَها الأسمى.

ما أشبه الليلة بالبارحة:

لقد جاء عبد الحميد في عهد فسد على الناس فيه أمر دينهم وأمر دنياهم معا، وعبثت الطرق المنسوبة للصوفية زورا وبهتانا بمسلكه القيم، إذا سلمنا بأن التصوف الإسلامي كان ضروريا تواجده لهذه الأمة ولا سيما في القرون الوسطى وعهد تردي الحضارة الإسلامية، إلى الحضيض في فترة من الزمن

معروفة، لقد عبثت الطرق الصوفية في المغرب العربي وإفريقية الغربية بما لا يقبله عقل ولا نقل، فالمنتسبون للطريقة التجانية يُكَفِّرون كلَّ من لا يؤمن بهذه الأصول في طريقتهم:

1ـ أن قراءة (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة، متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن. وألفاظ الصلاة هي: "اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله، حق قدره ومقداره العظيم".

2ـ أن (صلاة الفاتح) من كلام الله القديم، ولا يترتب عليها ثوابها إلا من اعتقد ذلك.

3ـ وأن (صلاة الفاتح) علمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره.

4ـ وأن مؤسس الطريقة التجانية أفضل الأولياء.

5ـ وأن من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، وتغفر ذنوبه الصغار والكبار حتى التبعات.

أليس ذلك كله تزهيدا للناس في قراءة القرآن وطلب العلم واكتساب الرزق الحلال بالطريقة المشروعة؟

كما أن الطريقة القادرية (نسبة إلى عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني)[1] يُكَفِّرون من لا يؤمن بان الله أكرم الكيلاني يوما بإحياء أرواح يوم كامل ممن قبض الله أرواحهم بسبب ابن امرأة عجوز توفي لها وحيدها فاشتكت ذلك إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني وتعلقت بركابه أن يحيي لها ولدها، فقال لها: هلا

---

(1)ـ الشيخ عبد القادر الكيلاني صوفي عاش ومات في العراق ومرقده في بغداد في منطقة باب الشيخ. ألفت عنه كتب كثيرة منها (الشيخ عبد القادر الجيلاني) للدكتور عبد الرزاق الكيلاني.

جئتني قبل وفاته؟ فردت بأنها تريد ولدها وكفى، فقام الرجل وصلى لله ركعتين، ثم صعد إلى السماء فوجد المَلَك المكلف بالأرواح عزرائيل رافعا حصيلة يومه من الأرواح في زنبيل، فطلب منه تسليم روح ولد العجوز فأبى عزرائيل، وتخاصم الفريقان، فتغلب عبد القادر وقلب الزنبيل فخرجت كل الأرواح التي كانت فيه فعادت إلى ذويها بمن فيهم ولد العجوز!!..

إن هذه القصة مسَلَّمَة عند القادرية، ومن شك فيها فهو كافر مكذِّب بالكرامة والولاية.

إن هذه الأمراض الاجتماعية التي دخلت على الإسلام كذبها مثلَنا الأولون من العلماء، فالتاريخ يحدثنا بأن العالم الجزائري عبد الرحمن الأخضري[1] مؤلف كتاب (السلم في المنطق) و(الدرة البيضاء في علم الفرائض) كان يصف عصره بأنه عاثر القرون ذي الجهل والفساد والفتون، ويندد بأدعياء التصوف قائلا:

قد صدق الوالد في العباره	إذ قال قولا صادق الإشاره
فقال في أولئك الدجاجله	مقالة صادقة وعادله
ويذكرون الله بالتغيير	ويشطحون الشطح كالحمير
وينبحون النبح كالكلاب	طريقهم ليس على الصواب
إذا رأيت رجلا يطير	أو فوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف على حدود الشرع	فإنه مستدرج وبدعي
فلعنة الله على الجميع	ليس فيهم من فتى مطيع

(1)- هو عبد الرحمن بن محمد الصغير الأخضري (920 هـ، 1512م/ 953 هـ، 1544م). كتب عنه الدكتور عمار طالبي دراسة ضافية في العدد الثاني من مجلة العلوم الإسلامية الصادرة عن جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، 1407 هـ، 1987م، فلتراجع. كما أن للأستاذ بوزياني الدراجي كتابا مفصلا عن حياته وأعماله، ومثله للدكتور عبد الرحمن تيبرماسين.

ابن باديس يعمل في صمت واعتدال:

كذلك كانت الحال في الجزائر وغير الجزائر في عهد تخلفنا، وقد أدرك عبد الحميد بن باديس ما لهذه التعاليم من مساوئ ومثبطات للهمم والعزائم، فعمل على تنوير العقول لاستئصال شأفتها من نفوس الناس وقلوبهم، وذلك عن طريق نشر العلم والمعرفة والعودة إلى فجر الإسلام والعهود الزاهرة بعده يستقي من منابع الثقافة فيها، آخذا بأسباب الحضارة الجديدة مقتبسا منها أحسن ما فيها. وقد رأى أن يعمل في صمت واعتدال في سيره في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ ثورته الفكرية التي بدأت إصلاحا، وانتهت ثورة فكرية وَقَّادَة ثم مُسَلَّحَة مُحْرِقَة كان لها ما بعدها في تاريخ الجزائر الحديثة، نفذها من بعده أبناؤه البررة الذين كان يؤمن بهم وبإخلاصهم إيمانه بربه وبأمته.

أجل، كان يعمل في صمت، وينفق على طلابه من خالص ماله، وظل كذلك فترة زمنية عصيبة كان فيها صابرا حكيما ويحالفه النصر.

جهود ابن باديس سرعان ما أثمرت:

وتمضي الأيام سراعا، فيتخرج الفوج الأول من طلاب عبد الحميد بن باديس تخرجا جديدا كان فيه حرا في أفكاره، واقعيا في مذاهبه العقلية، ويقظا في تصرفاته، وصَيِّنا بعيدا عن الغلواء في الدين، يعمل للدنيا ولكنه كان غير أسير لها مخافة أن تستعبده فينحرف عن الأصالة التي لا تؤمن بعبادة الوثن (المال) ولكنها تفنيه في صنع الإنسان الخير وتذيبه في الأهداف العليا لهذا الإنسان ومثله الخلقية التي أهلته لحمل الرسالات والاستماتة في سبيل انتصارها وخلودها خلود هذا الإنسان نفسه أمام كل الكائنات الأخرى.

تخرج الفوج الأول من طلاب عبد الحميد بعد عقد من السنين، فالتحقوا بالمناضلين القلائل في مختلف أصقاع الجزائر، وكانت مهمتهم الأولى أن يعملوا ليل نهار من أجل بعث لغة الضاد في وطن أضحت فيه لغة أجنبية عن أهلها،

وكانوا أهلا لذلك، فما مرت فترة يسيرة حتى بدأت المدارس تنشأ في المدن والريف على السواء على نفقة الشعب ومن تبرعاته التي يجود بها لإنشاء هذه المدارس بسخاء بعيد النظير، حتى قال شاعر من شعراء الجماعة ومن هؤلاء الخريجين (محمد الهادي السنوسي) يخاطب جمعية العلماء بعد تأسيسها:

حياك شعبك إقليما وسكانا ... يا هيئة قد زكت علما وإيمانا

أحييت من روحه (العليا) حشاشتها ... من بعد ما قيل حين الشعب قد حانا

وما رأيت كهذا الشعب في شمم ... شعبا ولا مثله في الخير معوانا

وقال عن المستعمر:

أما وقد سامنا ذلا ودس لنا ... من الدسائس ما بالنار أصلانا

فلتسلكي سبلا لله معلنة ... حقا وربك أبقى منه سلطانا

أجل، لقد هب الشعب ورجالاته لإثبات الوجود العربي الإسلامي في الجزائر بشكل عملي، تَمَثَّل في تأسيس المؤسسات العلمية والدينية والفنية، وأرسى لها قواعد متينة، وتحدى الاستعمار في مشاريعه الهدامة، وآلى على نفسه أن يحقق المعجزة، ما دام عبد الحميد بن باديس قد خطط لنهضته واتخذ مبدأه في الحياة (قَاوِمْ تَقُمْ، لا سَلِّمْ تَسْلَمْ)، وأعلن أن أساس حركته ـ الإصلاحية في مبتدأ ظهورها ثم الثورية في منتهاها ـ تستند على الأعمدة الثلاثة التي لا يهادن في شأنها حتى يظهرها الله أو يهلك دونها، وهذه أمام سمع الدنيا وبصرها:

(الإسلام ديننا ـ العربية لغتنا ـ الجزائر وطننا)

نعم، إن الجزائر مسلمة وعربية ولها وطن هو الجزائر، فليست بدعا في الأمم والشعوب، وإذا تغنى غيرها بالأمجاد فإن لها أمجادا، فهي شعب جزء من الأمة العربية الإسلامية، فلولا انتسابها لهذه الأمة ومحافظتها على أمجادها لذوبها

الغزاة المتوالون، إنها عربية في نسبها منذ فجر التاريخ عادات وأخلاق ومشاعر وأحاسيس، ومسلمة بارة بالإسلام منذ اعتنقته مختارة مقتنعة بعدالته وتعاليمه السمحة واتخذته دينها الأول والأخير أبد الآبدين، ولا يمكن للإسلام وللعربية أن يعيشا على غير أرض، وما أرضهما منذ أربعة عشر قرنا من التاريخ في هذه الديار إلا الوطن الجزائري بكل فئاته وسكانه الذين لا يؤمنون بالعرقية أو التفوق الجنسي وضروب التمييز العنصري بين أفراده، فهم جميعا يشكلون مجتمعا موحدا أصهره الإسلام في بوتقته، فأصبح أمة متميزة عن غيرها ولها مقومات الأمة المتحضرة بحضارة معينة. فلقد غزا أرضها الرومان والفندال والبيزنطيون والنورمان والاسبان، فما قدروا على محو شخصيتها. ولما جاءها العرب المسلمون بعد حين من الدهر غاب فيه الأحفاد عن الأجداد، إذ بالدم يصرخ في العروق من جديد لينشئ وحدة ويبعث عهدا سحيقا لم يكلفه كبير عناء في جمع الشمل وتكوين دولة من العرب والأمازيغ ما لبثت أن اندمجت في مجتمع موحد يجمعه كل شيء ولا يفرق بينه شيء، ولئن تخلف هذا المجتمع دهرا فقد قام أبناؤه وامتلأت نفوسهم بالإيمان فهبوا لرد العوادي ومصاولة المحتلين الغزاة الذين نقضوا العهود وتنكروا للذين تعاملوا معهم بنبل ووفاء، تنكروا لهم واحتكموا لشريعة الغاب، فأعملوا سيوفهم في المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ولم يراعوا إلا ولا ذمة، ولم يلتزموا اتفاقيات أو عقودا أبرموها ووقعوها ثم أجهزوا عليهم في وحشية وضراوة لم تعرفها الأعراف الدولية في هذه المنطقة من العالم في تلك الأيام، لقد احتلوا الأرض، وداسوا المقدسات، وسفكوا الدماء أنهارا. وكان هدفهم الأسمى أن يقضوا على كل تراث عربي وإسلامي في الجزائر وإفريقية كلها، انتقاما ممن أذاقهم الأمرين في عهد الفتوحات الإسلامية في أوربا وعهد الصليبيين في الشرق العربي كما يزعمون..

أجل، لقد دَوَّخوا الجزائر باحتلال كل أراضيها، ثم كرسوا استعمارهم الاستيطاني فيها، واطمأنوا للنهاية المشرفة التي حققوها، واقتنعوا أن الجزائر أصبحت فرنسية جزءا من التراب الوطني الفرنسي إلى الأبد، فقد سلم الخصوم واعترفوا بالأمر الواقع، ويئسوا من جدوى كل نضال مسلح ضد المحتلين المغتصبين، بل إن الإسلام ولغته لم تبق لهما أية أطماع في البقاء طويلا فوق هذه الأرض التي أخضعناها بقوة الحديد والنار، ما دام الإسلام واللغة العربية ومقوماتهما مفقودة مندثرة ولا تتمثل إلا في بقايا من المظاهر والتقاليد البالية التي لا تلبث أن تزول.

عبد الحميد بن باديس المناضل الاجتماعي في الميدان

لا وَرَبِّي، ما مات هذا الشعب، ولا فرَّط في دينه، ولا سلَّم في لغته، ولا تنكَّر لنسبه وأمته، فهو موجود، ودينه باق بقاء هذا الكون، ولغته لن تقوى على إذابتها أية لغة دخيلة ما دامت محتمية بالقرآن الذي جعلها الله ترجمانه لفهم آياته وأسراره وبلاغته وإعجازه، ولو تدرعت اللغة الدخيلة بالحديد والنار، وما دام القرآن موجودا فاللغة العربية خالدة خلود الإسلام نفسه، وما كان النضال سهلا لإنعاش الإسلام ولغته في الجزائر ما لم يخطط لهما، فالعصر عصر تخطيط، وقد خطط الناس لكل شيء إلا هذين فلم يخطط لهما في الجزائر أحد قبل عبد الحميد بن باديس وأعضاده وأنصاره.

فكَّر عبد الحميد وقدَّر، ورأى بثاقب نظره كمصلح اجتماعي؛ أن الجمهور الإسلامي الضعيف المخدر بشتى أنواع التخدير في ذهنيته وخلخلة عقيدته وزعزعة إيمانه بنفسه ومُثُله وضعف ثقته في حاضره ومستقبله، لا يفيق من سُباته إلا بمهاجمة نقاط الضعف في نفسه، فدعا للتغيير وأوجد وسائل التغيير، وأعلن ثورة فكرية انتظمت ضروبا من الإصلاح، في الدين والقومية والوطنية الصادقة. دعا علماء الدين إلى التجمع، وأقنعهم أن يوسعوا دائرة معارفهم في الدين وإعادة فهمه فهما يتلاءم ومفهوم الصحابة والتابعين في أحكامه وأسباب نزوله، وأن يضعوه في قوالب جديدة يقدمونه فيها للجيل الجديد بحيث لا يتعارض مع العلم الحديث ونظرياته، وأن يُخْلُوه من ضروب الأساطير الدخيلة عليه ولا سيما الإسرائيليات التي حُشِيَتْ بها بعضُ كتب التفسير حشوا، ما أعظم البلاء الذي جرته على الإسلام والمسلمين والأمة العربية طوال القرون المظلمة من تاريخ هذه الأمة.

دعا عبد الحميد علماء الدين في الجزائر أن يحاربوا الكسل والخمول، وأن يعملوا للعيش من كَدِّ يمينهم، وحرَّم على أتباعه أن يقبلوا التوظف لدى الدوائر الاستعمارية، وأن يتحاشوا الانزلاق في التقرب من هذه الدوائر، ومغريات تلك الوظائف، لأنها قيود واغلال وشباك للنصب والاحتيال، وكان هناك في الجزائر أصناف ثلاثة من سكان البلاد لا بد من العناية بهم جميعا لبناء كيان جديد ونهضة حديثة لهذه الأمة: الكهول ، والشبان، والأطفال.

الكهول:

تخير لهؤلاء في العناية بهم (المسجد)، وللمسجد في نظر عبد الحميد رسالة أخطر من القيام بشعائر الدين فيه، فهو منذ نشأته كان مدرسة للتثقيف والتوجيه والتكوين، في أمر الدين والدنيا معا. فهو ـ إذن ـ صاحب رسالة، ولكنها الآن معطلة في الجزائر، لقد أغلقت فرنسة المساجد في وجه العلماء الأحرار، وحظرت عليهم التدريس فيها إلا برخصة دولية خاصة، وهذه لا تعطيها إلا لعملائها والمتعاونين معها ولو كانوا لا يملكون من المعرفة ما يمكنهم من تلاوة خطبة، مكتوبة في القرون الوسطى، محفوظة في كتب صفراء، موضوعاتها في واد والعالم الحاضر في واد آخر، ولكن ما يعني السلطات الاستعمارية من ذلك هو المظهر والزيف في الدعاية الخارجية لا أكثر، أما الإمام فيكفي أن يقدم ملفا مشحونا بشهادات الحكام أو القادة العسكريين والأمن العام والاستخبارات تثبت إخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة ليحصل على الإمامة ولو كان مقدوحا في إمامته من طرف المصلين خلفه أجمعين، إذ أنه موظف رسمي ويجب الاقتداء به والتعامل معه في المهمة التي يؤديها حتى ولو كانت ضد أهله وبلاده.

إن المساجد في الجزائر محدودة جدا، إذ سبق أن ذكرنا أنها تحولت في غير ما مكان إلى إدارات وثكنات ومعابد لغير أهلها على الرغم منهم، وعبد الحميد كان عالما مسلما، وبدوره كان يدرس في المساجد، ولقد أُخْرِجَ من الجامع الكبير بمدينة قسنطينة يوم وسع دائرة عمله ولم يعد يكفيه مسجد سيدي عبد المؤمن الحر الذي كان يدرس فيه قبل ذلك، أُخْرِجَ من المسجد بسعي من مفتي المدينة الذي دُفع لذلك (كما يبدو). وكان لزاما أن يبحث عبد الحميد على مسجد آخر في المدينة، فعرض الأمر على والده، وكان مهيبا في قومه، وذا منزلة أيضا عند المستوطنين الفرنسيين، حيث كان مزارعا كبيرا ونائبا ماليا في المجلس المالي الجزائري. ولقد يعجب الإنسان أن فرنسة كانت ألحقت الجزائر بمحافظاتها إلا في الميدان المالي، فقد كانت الجزائر مستقلة عن فرنسة، وذلك بسعي من المستوطنين الذين يرون في انضمام خزينة الدولة في الجزائر إلى الخزينة الفرنسية العامة عائقا لمشاريعهم وتصرفاتهم في توسيع دائرة ممتلكاتهم في الجزائر دون الوقوع تحت طائلة القانون الفرنسي نفسه فيما إذا كانت هناك مخالفات في الصرف وما إليه...

أجل، لقد حصل عبد الحميد على رخصة بواسطة والده، فانتقل للتدريس إلى "الجامع الأخضر" بقسنطينة، وهو من المؤسسات الإسلامية قبل الاحتلال، وفي الجامع الأخضر ومسجد صغير يسمى "سيدي قموش" يعود إلى آل ابن باديس أنفسهم، هناك أعلن الإمام عبد الحميد بن باديس في الشعب الجزائري أن عهدا جديدا قد حل، وأن افتتاحا للدروس بشكل موسع ينتظم كل من وفد على قسنطينة قد تقرر، وسيجد الطلاب المسكن والإعاشة والكتب مجانا للجميع، فما عليهم إلا الإقبال. وكان واضحا أن يؤم مدينة قسنطينة المئات من الطلاب من سائر أصقاع الجزائر، وكان محتما أن يخطط لهذا الوضع الجديد بدقة، وأن يعمل مسبقا لتنظيم كل شيء من احتياجات الطلاب.

صندوق للطلاب يعلن عنه:

أعلن عبد الحميد بواسطة صحافته أن صندوقا للطلبة قد أنشئ في مدينة قسنطينة لجمع التبرعات من المحسنين وعهد بإدارته إلى أحد أتباعه (الحاج حموش كرماني رحمه الله)، فأداره بتجرد وإخلاص مدى حياة عبد الحميد المدرس، وكانت التبرعات يعلن عنها في الجرائد المحلية باللسانين العربي والفرنسي، وكانت أحيانا تُعدُّ بالفرنكات والصنتيمات، وكان هذا الصندوق يقدم الخبز والدواء والغذاء وبعض الكساء للمعوزين من الطلاب ـ وغالبهم معوز ـ لإيمانه بمستقبل الأمة الزاهر وشعوره بأن الجزائر بمقوماتها العربية الإسلامية لابد أن تعود إلى الوجود الحر المستقل، وأن ترجع إليها سيادتها ولو طال النضال وتطاول الخصم وقاتل هذا الشعب بشراسة في كل أطوار تواجده في البلاد ومنذ الاحتلال سنة 1830 م. وبارك الله في هذا الصندوق حتى أخرج البلاد من الضيق إلى الفرج الواسع عندما عمت الحركة الإصلاحية القطر الجزائري كُلَّه.

الشروع في بناء المساجد الحرة:

لقد ذكرنا آنفا ان المساجد القديمة محدودة جدا، ثم إن الاستعمار حرمها في وجه العلماء الأحرار، وكان واجبا إسلاميا أن يتحرك الشعب كله لبناء مساجد جديدة من أمواله الخاصة بواسطة التبرع، فشرع يؤسس الجمعيات الدينية للعناية بالمساجد وإنشاء مرافق لها تساعدها على النهوض برسالتها استنادا على مادة في القانون الفرنسي يسمح بتأسيس الجمعيات وامتلاك الممتلكات للكنائس والمعابد العائدة لغير المسلمين، لأن فرنسة دولة علمانية لائكية لا تعترف بالأديان، وإن كانت في الواقع تعد بشعبها أم الكنيسة الكاثوليكية الرؤوم في أوروبا.

وبذلك القانون وتأسيس الجمعيات الدينية الإسلامية الحرة، أنشئت مساجد ضخمة في شتى المدن والقرى الجزائرية، وبجانبها بعض المدارس القرآنية لتحفيظ القرآن أولا، ولإعطاء دروس دينية ثورية لا عهد للناس بها قبلهم، ثم قررت جمعية العلماء إقامة صلاة الجمعة فيها بدلا من المساجد الرسمية الحكومية، وأصدرت في ذلك فتوى تحرم فيها الصلاة خلف أئمة يتعاونون مع المحتلين ضد إخوانهم في الجنس والعقيدة. وفر الناس أفواجا من مساجد الحكومة، وسمعوا لأول مرة خطبا جمة بلسان عربي مبين تبعث الموتى من أجداثهم؛ خطبا دينية، اجتماعية، انتقادية، ثورية، تدعو للاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعودة المسلمين إلى ما كان عليه سلفهم الأول في عهودهم الزاهرة، وإلى إصلاح المجتمع بإصلاح الخلية الأولى الأسرة في تكوينها وتنشئتها تنشئة صلبة تتفق وحضارتهم القوية في عزتها وكرامتها في فجر تاريخهم المضيئ، وإلى نبذ الخرافات والأوهام والاتكالية والتمسك بالتقاليد البالية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، وإلى الاستعداد للنهوض بالأعباء التي سيحملها الشعب عندما يدعو الداعي ليوم مشهود في حاضر هذه الأمة لتقرر مصيرها السياسي وفق إرادتها، مستخدمة لتحقيق ذلك كل أسلوب مُجْدٍ ولو كان ذلك حد السلاح إذا كان الاستعمار لا يسمع ولا يعي إلا بحد السلاح، ومهما كانت الصعوبات والتضحيات طالما أنه لا يوجد بديل بحكم كل التجارب التي مارسناها معه في ميدان النضال السياسي، وطيلة ربع قرن كامل كان فيه الأصم الأبكم الأعمى الذي لا يعرف إلا سلطان القوة.

لقد قرر العلماء الأحرار أن لا يتلقوا أجرا على صلاة يصلونها أئمة بالناس، واستعاضوا عن هذه المرتبات ـ التي تدفع لغيرهم من الأئمة الرسميين ـ بفتح متاجر ومحلات أخرى للعمل، حتى إذا جاء عهد تأسيس المدارس الجديدة التحقوا بها مدرسين، فكانوا يعيشون من كَدِّ يمينهم، وكان رائدهم في ذلك

عبد الحميد بن باديس نفسه، فقد رفض كل مرتب يتقاضاه حتى على التدريس نفسه، وما كان يقبل من جمعية العلماء إلا ثمن بطاقة ركوب بالسكك الحديدية الجزائرية في الوطن كله لا تكلف يومئذ أكثر من 60 ألف فرنك فرنسي قديم. وكان هؤلاء العلماء يعملون ثماني ساعات في النهار وساعتين بالليل لمحو الأمية في الكبار، وكانوا يلقون دروسهم في المساجد للرجال والنساء على السواء، إذ كانت النساء لا يتخلفن عن هذه الدروس، وطالما قدمن حليهن لبناء مسجد أو مدرسة من خالص حليهن، وإذ كثرت الوافدات على المساجد، وفصل بين الرجال والنساء بستارة من القماش كحاجز بين الرجال والنساء، وإذا صلح أمر المرأة صلح أمر الرجل في الخارج. وبذلك اتسق لجمعية العلماء لما دعت إلى تعليم البنت المسلمة في مدارسها، لم تجد أية مصاعب في الطريق، بل لقد كان الأمر اكثر يسرا من ذلك، لقد أخرج الناس بناتهم من المدارس الفرنسية، وألحقوهن بمدارس جمعية العلماء، مما جعل الفرنسيين يتخذون الإجراءات الصارمة ضد الموظفين الذين يعملون لديهم، قطعوا عنهم المنح العائلية، وعزلوا بعضهم من أجل تعليم أولاده في مدارس الجمعية، ولكن ذلك كله لم يثن الشعب عن عزيمته، ولا صرفه عن محجته التي اختارها لنفسه لبناء كيانه وفق مقتضياتها وأهدافها السامية.

عبد الحميد بن باديس الرائد

كان عبد الحميد بن باديس رائدا لإخوانه العلماء، (والرائد لا يكذب أهله)، فقد سن قوانين لتحركاته وتصرفاته لا يتخطاها أبدا، لقد ترك منزل والده ـ وهو من الثراء بمكان ـ وسكن غرفة واحدة في مدرسة متواضعة وهي مدرسة التربية والتعليم في قسنطينة، وكان منشئها ومؤسسها، وكانت بناية عائدة للأوقاف الإسلامية وضعتها فرنسة في المزاد العلني للبيع، وجاء عبد الحميد وأنصاره لشرائها، ولما سمعت فرنسة بذلك أوعزت إلى من يجيء للمزايدة عليه، مما رفع سعرها أضعاف ما تساوي، ولكن البيع وقع عليه وبحيلة من الدَّلاَّل نفسه حيث كان من أتباعه.

وبارك الله في هذه المدرسة حتى أصبحت تنتظم بفروعها في المدينة أكثر من ألفي تلميذ وتلميذة.

هناك في المدرسة المتواضعة كان عبد الحميد يسكن ويعيش على رغيف وكأسة لبن وبعض الزبد والتين المجفف والزيتون ومشتقاته لا غير، وكان يكلف بعض طلابه[1] لإحضارها له عند انتهاء دروسه قريبا من منتصف الليل. وكان شرابه المفضل القهوة على الطريقة التركية (الجزوة).

كان وقته منظما رتيبالا يغيره، يلقي دروسه صباحا بعد صلاة الفجر مباشرة، يفتتحها بتدريس الشفا للقاضي عياض[2] في أول أمره، ثم بتدريس موطإ الإمام مالك في الحديث بعد ذلك. ويختم دروس (11 يوميا بين الصباح

---

(1)ـ يُنظر في هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ علي مرحوم، تحت عنوان (لمحات من حياة الشيخ ابن باديس)، مجلة الأصالة، الجزائر، السنة: 4، العدد: 24، ربيع الأول، ربيع الثاني 1395 هـ/ مارس، أبريل 1975م.

(2)ـ الإمام العلامة الحافظ، شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي.ولد سنة 476ه. رحل إلى الأندلس، وأخذ عن علمائها. استبحر في العلوم، وجمع وألف، واشتهر اسمه في الآفاق.. توفي سنة 544ه بمراكش.

والمساء) بدرس التفسير ليلا في الجامع الأخضر على طريقة حديثة، كانت قاعة المسجد وسدته وردهاته وأفنيته الفسيحة كلها غاصة بالحضور رجالا ونساء، كان تفسيره للقرآن فريدا في دقته وإيصاله للملإ في بيان كأنه تنزيل من التنزيل، وكان يحضره حتى بعض الأجانب من المستشرقين والرسميين لما لمسوه من فهم وإدراك لأسرار القرآن وفوائده لم يكونوا يجدونها عند غيره[1].ولم يكن ذلك كافيا في نظر عبد الحميد بن باديس، فإن ناسا من ذوي المعاذير الخاصة لا يتمكنون من حضور هذه الدروس، فقرر تعويضهم عنها في أوقات أخرى.

دروس للنساء المسلمات:

النساء شقائق الرجال[2]، فلهن ما لهم من الحقوق، وعليهن ما عليهم من الواجبات، كل في دائرة اختصاصه، ومن حقهن أن يدرين شعائر دينهن. فكان عبد الحميد يتخولهن بالموعظة مرة كل أسبوع، وفي الجامع الأخضر نفسه في غير وقت الصلاة، وكان المسجد يغص بالحاضرات بشكل لا يقل عن الحضور من الرجال.وكان يعلم الشابات المسلمات في مدرسة التربية والتعليم دروسا خاصة بهن، وإني لأذكر أنه درس لهن يوما قصيدة شوقي[3] في المرأة المصرية التي يقول فيها:

---

(1)ـ تناول تفسير ابن باديس بالدراسة الأستاذ حسن عبد الرحمن سلوادي في كتابه (ابن باديس مفسرا)، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

(2)ـ في الحديث النبوي الشريف: (إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَال). أخرجه الترمذي في سننه كتاب الطهارة رقم 105، وأبو داود في سننه كتاب الطهارة رقم 204، وأحمد في مسنده كتاب باقي مسند الأنصار رقم 24999، 25869، والدارمي في سننه كتاب الطهارة رقم 757.

(3)ـ ولد في القاهرة عام 1868م في أسرة موسرة متصلة بقصر الخديوي. لما بلغ الرابعة من عمره، أدخل كتاب الشيخ صالح ثم مدرسة المبتديان الابتدائية، فالمدرسة التجهيزية (الثانوية) حيث حصل على المجانية كمكافأة على تفوقه. حين أتم دراسته الثانوية دخل مدرسة الحقوق، ودرس بها عامين حصل بعدها على الشهادة النهائية في الترجمة. ما أن نال شوقي شهادته حتى عينه الخديوي في خاصته، ثم أوفده بعد عام لدراسة الحقوق في فرنسا، حيث أقام فيها ثلاثة أعوام، حصل بعدها على الشهادة النهائية سنة 1893م. عاد شوقي إلى مصر أوائل سنة 1894م. نفاه الإنجليز إلى الأندلس سنة 1914م. عاد من المنفى في أوائل سنة 1920م. بويع أميراً للشعراء سنة 1927م. توفي في 14 أكتوبر 1932م مخلفاً تراثاً شعرياً خالداً.

قــم حـــيِّ هـــذي النيِّـــرات   حـــيِّ الحـــسان الخيِّـــرات

إلى أن يقول:

هــــــذا رســــــولُ الله   لم يـــنقص حقـــوق المؤمنـــات
العلـــم كـــان شـريعـــةً   لنسائـــــه المتـفـقهـــات
رُضْـــنَ السياســـة والتجـــارهْ   والشـــئون الأخـريـــات
كانــت ســكينة[1] تمــلأ الدنــيا   وتهـــــزأ بالــــــرواهْ
بغـــداد دار العالـمـــات   ومنـــــزل المتأدبـــات
ودمشـــق تحـــت أمـــية   أم الجـــواري النابغـــات
وريـــاض أندلـــس نمـــ   ـــينالهاتفات الشعــرات
مصـــر تجـــدد مجـــدها   بنـسائـــها المتجـــددات

وقد ظل يشرح هذه القصيدة في شكل محاضرات يحلل فيها كل بيت مما يمكن أن يجعل من شرحه هذا مؤلفا كاملا في تاريخ المراة العربية قديما وحديثا.وما كان عبد الحميد يرى أن شيئا مما فعل يجافي الشريعة أو يجر الفتنة، كما يفعل بعض الزنادقة عندما يحكمون الهوى.

دروس للعمال الجزائريين:

والعمال قوة الشعب، ولا يمكن أن يُغْفِلَ أمرَهم عبد الحميد، فقد قرر لهم درسا في يوم الأحد من كل أسبوع، وذلك في مدرسة التربية والتعليم، فقد كان هؤلاء تقتسمهم نقابات العمال الافرنسية ولا يكادون يجدون أنفسهم، حتى

(1)ـ كانت السيدة سكينة سيدة نساء عصرها وأوفرهنّ ذكاءً وعقلاً وأدباً وعفة، ووكان منـزلها ندوةً دائمة للعلم والفقه والحديث. أكثر الروايات رجّحت مولدها في العام 47هـ. توفيت في شهر ربيع الأول من عام 117هـ في المدينة المنورة..

وجدوا المنقذ فأخذوا يترددون على دروسه، فنشأ عندهم مبدأ التفكير في استحداث نقابة للعمال العرب، وإذا لم يسمح القانون الفرنسي بذلك تكتلوا خارج نقابات الفرنسيين بصورة غير رسمية تحسبا للمستقبل. وكان بعض هؤلاء قد انزلقوا في المذهبيات والايديولوجيات الدخيلة، فتولوا عنها، دون أن يلزمهم عبد الحميد بذلك، لأنه بدوره كان لا يرى مانعا في التعاون مع كل من يحارب الاستعمار في الجزائر ولو كان مخالفا له في مذهبه، ولذلك كان مهادنا للاشتراكيين والأحرار من الفرنسيين، فلا يهاجمهم في صحفه ولا في كلماته، ولكنهم لم يكونوا مقتنعين بوجهة نظره في النهوض ببلاده..

وكانت دروسه للعمال ترتكز على إلقاء محاضرات في التاريخ العربي الإسلامي، والنهضة الإسلامية الحديثة، والدروس الدينية الصافية من كل تأويل لا يرجحه نقل ولا يقبله عقل سليم. وكان يلقي هذه الدروس بلغة عربية فصيحة ميسرة، بحيث يمكن أن توصف تعابيره بأنها لغة عربية محلية دارجة ولكنها معربة خاضعة لقوانين اللغة وأصالتها، اقتناعا منه بأن اللغة الدارجة عربية في معظم مفرداتها وحسْب معلمها أن يدخل عليها بعض التحوير وتغيير بعض المفردات الدخيلة عنها أو المهجورة التي لا تعايش اللغة العربية الحديثة.

دروس للشباب:

كان عبد الحميد بن باديس يؤمن بالشباب وبرسالة الشباب في الحياة، وأنهم الذين تُبنى على سواعدهم الدول وتقوم على كواهلهم واختصاصاتهم وفنياتهم الحضارات الزاهرة، ومن أهمل شباب أمته تاه وضاع في مَهَامِهَ لا أول لها ولا آخر. كان يعتبره عماد المستقبل، ومعقد آمالها [أي الأمة]، وأنه وحده الجدير بتحقيق المعجزات، وأنه الخلف الذي تنشده هذه الأمة لبعث سلفها الأول الذي بلغت فتوحاته الخافقين وارتفعت راياته في أكثر القارات المعروفة آنئذ، ولاسيما وقد أدرك أن الأجيال التي جثم على صدرها الاستعمار عهدا

طويلا قد تخدرت وعمل فيها الهزال حسا ومعنى بما لا يدع مجالا للشك في أن أي عمل يسند إليها سيكون خاضعا لأوضاع خاصة لا تبديل لسنة الله فيها، ومع ذلك قد يرجى بعثها من جديد ولو بشكل محدود، ولقد سجل عبد الحميد كل هذه الظواهر في قصيدته المشهورة:

شعب الجزائر مسلم — وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب

يا نشء أنت رجاؤنا — وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها — وخض الخطوب ولا تهب

كان الشباب في نظر عبد الحميد ضالا بحكم تعاليم الاستعمار التي كان يتلقاها في معاهده ومدارسه، فقد كان هذا الاستعمار يعلم قواعد استعمارية للشباب الجزائري حتى يظن أنها قواعد علمية صحيحة وثابتة. كان الطفل عندما يدخل المدرسة الفرنسية يلقن أول درس في التاريخ بأنه من أصل غولي (الغولوا) أو بروطاني (بروطانيا الفرنسية)، وكان يُنْعَتُ له عظماء فرنسة بجلائل الأعمال. أما معلوماته التي كان يُعْطَاهَا في التاريخ العربي فقد كانت مسمومة مغرضة حاقدة، فيقولون عن النبي محمد ـ نبي الأغلبية الساحقة من سكان الجزائر ـ بأنه كان رجلا يبحث عن المال متنقلا عبر الصحاري إلى الشام لقاء أرباح يجنيها من أموال خديجة بنت خويلد، وكان حمالا وكان... كما يقولون عن العرب الفاتحين بأنهم جماعة من المغامرين دفعهم لخروجهم من جزيرتهم القاحلة الطمع في المغانم والنهب والاغتصاب ليس غير. أما إذا تحدثوا عن بني هلال وبني سليم ورباح عندما جاؤوا غزاة إلى الشمال الإفريقي في عهد الفاطميين فحدِّث عن بحر من التهم ولا حرج، فهم يصفونهم بأنهم أعداء للحضارة يهدمون معالمها، وغلاظ شداد يقضون على كل أثر للحياة

يجدونه أمامهم، في المباني والمزارع والغابات، يعملون فؤوسهم في كل قائم، ويحرقون اليابس والأخضر نباتا كان أو شجرا أو نخلا، ويبيدون كل ثروة يلقونها في سبيلهم ما داموا ينتفعون بها هم أو حيواناتهم.. ولقد أسرفوا في ذلك إسرافا حاقدا لا نظير له في التاريخ، حتى بلغ التأثر بعبد الحميد بن باديس في إحدى محاضراته يوما في نادي الترقي بالجزائر تحت عنوان (العرب في القرآن)[1]: إذا أسرف المؤرخون الأوروبيون الحاقدون على العنصر العربي بأن بني هلال قد خربوا فلقد يكفيهم فخرا أنهم عربوا، وتلك لعمري خصلة عوضتهم كل ما يمكن أنهم اقترفوه فعلا في المغرب مما نُسِبَ إليهم مبالَغا فيه.

كان الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس يجتمع بالشباب ويلقي في أنديتهم ومراكز تجمعاتهم المحاضرات الدينية التاريخية الاجتماعية الوطنية بأسلوب ثوري جديد لم يألفوا سماعه ممن كان يحدثهم من المثقفين في المناسبات الخاصة أو العامة، وكان يدعو الشباب إلى تكتيل قواهم، ويحثهم على الاستقلال بمؤسساتهم عن التجمعات الفرنسية في ميادين الرياضة والفنون المسرحية والموسيقية والكشافة، وقد كان الاستعمار لا يسمح باستقلال هذه المنظمات الخاصة بالشباب أن تكون بمعزل عن مشاركة الشبان الفرنسيين لهم بأي شكل من الأشكال تحسبا لكل تحول قد يقع من الشباب العربي لفائدة إحياء القومية العربية وبعث الروح الإسلامية الجديدة اليقظة التي تتبنى أفكار المصلحين الاجتماعيين المجددين في المشرق والمغرب العربيين على السواء.

وبدروس الأستاذ الرئيس وتخوله الشباب بالموعظة والتوجيه، ومشاركته لهم في حفلاتهم، وحثهم على إحياء الفنون الجميلة العربية والفن الغنائي، بدلا من تقليد أوربا في كل شيء تقليدا أعمى دون أخذ ما يجمل من مدنية الغرب

---

(1)ـ نشرت خلاصتها على حلقتين في مجلة الشهاب، الحلقة الأولى في ج: 1، مج: 15، محرم 1358هـ، فيفري 1939م. والحلقة الثانية في ج: 3، مج: 15، ربيع الأول 1358هـ، أفريل 1939م.

وطرق نهضته الصناعية والاقتصادية والثقافية، وصهره جميعه في بوتقة نهضة علمية حديثة، ولكن متبصرة وغير متنطعة، ولا تتنكر لمدنيتها وحضارتها العربية الإسلامية الزاهرة، وإن تنكر لها الزمان ونال منها الحدثان في القرون الوسطى المظلمة، والتي تصدى لها الآن الجيل الجديد ليتخطاها ويعيد الكرة لإنعاش وبعث العهود الوضاءة التي انتهت بانتهاء العهد العباسي الأخير والأموي في الأندلس.

دعا الأستاذ الرئيس لاستقلال منظمات الشباب العربي، فاستقلت رغم أنف تحديات الاستعمار والتهديد بحلها ومصادرة ممتلكاتها وإغلاق أنديتها، وعمل الأستاذ الرئيس بنفسه على تأسيس "الكشافة الإسلامية الجزائرية" وأعطى لجمعيتين تأسستا في قسنطينة سنة 1937م اسمين: (الرجاء) لإحداهما، و(الإصلاح) للثانية، وقد كان إقدامه على تأسيس هاتين الجمعيتين مجازفة بسمعته كعالم ديني يسن سنة قد لا ترضي كل الناس ما دام النظام الكشفي سينتظم الكشافة والمرشدات على السواء، ومع ذلك فقد قال الرجل يخاطب الجمعيتين في احتفال لهما من قصيد له معروفا مشيرا إليهما في أحد البيتين السابقين:

يـــا نـــشء أنـــت رجـــاؤنا وبـــك الصبـــاح قـــد اقتـــرب

وكان عبد الحميد بن باديس كذلك مع الجمعيات الرياضية والفنية المسرحية، فقد خطب يوما في نادي الاتحاد بقسنطينة عندما تأسست (جمعية محبي الفن) وقال: "قد يقول الناس: ما بال هذا الرجل المعمم والداعي إلى الله يشارك جمعيات فنية تعنى بالغناء والموسيقى وما أبعدهما عن الدين، إذا قالوا ـ ولهم أن يقولوا ـ أما أنا فأرى أن لكل شعب هواجس وأحاسيس قومية لا يحيى بدونها، ولم يكن عبثا أبدا أن نرى في العهود الإسلامية الزاهرة أعلاما للعلم فقهاء في الدين وأساتذة في الطب وأقطابا في الموسيقى والنغم، مثل ابن

رشدوابن سيناوغيرهما، وكلهم أئمة في الدين يسمحون بالغناء والموسيقى، ولم يخل من ذلك حتى عهد الخلفاء الراشدين رضوان اللهم عليهم. فإذا رأيتم - يا هؤلاء - عبد الحميد اليوم يخطب في هذا المجتمع الفني العربي، فإنما لأنه يؤمن بأن شعبه لا بد أن يغني، فإما أن يغني بلسان قومه ونغم فنه، وفي ذلك ما فيه من عواطف قومية وطنية تصل الحاضر بالماضي وتربطهما بالمستقبل، وإلا فإنه سيغني بلسان من يستعمره بحكم ثقافته المفروضة عليه فرضا، ويستعير نغم موزار[1] وبيتهوفن[2] ونيني وغيرهم من أعلام الموسيقى والغناء في ديار الغرب، ويومئذ يخسأ المبطلون ويخسر المتزمتون الجامدون ويندمون وَلاَتَ حِينَ مَنْدَمْ. إن واجبي الديني والوطني يدعوني أن أنبذ الدخيل المستورد ولو كان براقا، وأبعث الفن الوطني القديم، ولو كان هزيلا الآن ولكنه سيحيى لا محالة يوما ما كفن عربي مستقل له شخصيته وطريقته وتطوره ولو بعد حين".

هكذا كانت مواقف عبد الحميد مع المنظمات القومية، وتلك طرقه في معالجة الأمور التي لا تحتمل التوقف ولا الجدل البيزنطي، مع العلم بأن هؤلاء المتزمتين من العلماء كثيرا ما يقيمون في بيوتهم وزواياهم حفلات من نفس النوع، بل كثيرا ما تكون هزؤا وسخرية من الإسلام والمسلمين أمام الأجانب الذين يحسبونها من الدين والدين منها براء: مثل ما يفعل الدراويش في رقصاتهم، وأكلة النار، وحملة الإبر والسفافيد والجمرات المحرقة والسكاكين التي ينومون بها عوام الناس بدعوى أنها لا تحرقهم للكرامة التي اختصهم بها الله دون الطوائف الأخرى (الدرقاوة، العيساوية، العمارية بالجزائر) الخ. ولقد عاب على مثلهم الإمام الأخضري في القرن العاشر للهجرة كما أسلفنا ذلك منذ حين.

---

(1)- اسمه وولفغانغ أماديوس (1756 - 1791م)، وهو ملحن نمساوي، وأحد أكبر عمالقة الأوبرا. من مؤلفاته: خطف في السراي، عرس فيغارو، دون خوان.

(2)- اسمه لودفيغ فان (1770 - 1827 م)، من كبار الموسيقيين الألمان. من أهم تآليفه: السمفونيات التسع.

من خصال ابن باديس:

كان الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس ملتزما أمام شعبه، وقدوة حسنة لطلابه وأبنائه، يتميز بخلق الوفاء، والاتزان في أحكامه، يظن الخير في كل الناس بلا استثناء حتى يظهر عكسه، لا يقبل ذكر أحد بما يسوء في مجلسه، خاصا كان أو عاما، يصافح كل الناس، يتسع صدره لكل خصومه، وحتى الذين حاولوا اغتياله يوم تربصوا له في بعض شوارع قسنطينة المظلمة وطعوه بالسكاكين مدفوعين من الاستعمار وأعوانه مما ترك به بعض العرج في إحدى رجليه[1]، حتى هؤلاء سامحهم أمام القضاء الافرنسي يوم محاكمتهم كجناة مجرمين، وبذلك كسب رضا الناس، وأحبه الجميع، وحتى غلاة الاستعمار كانوا يقدرون رأيه مهما كان متطرفا، لأنه يعبر عن واقع، ولأنه معروف لديهم بالنزاهة وعدم المهالأة والتزلف للحاكم، ولأن من الخير للاستعمار أن يجد من يصارحه في هفواته وطغيانه وجبروته لعله يرعوي، ولكنه لا يرعوي في نظر الرئيس عبد الحميد بن باديس الذي كان يقول: "إن أذن الاستعمار أذن صماء لا يخترقها إلا صوت القوة، وإذا كان في مقدور المستعمر ـ أيا كان هو ـ أن يفعل الخير فإنه لا يفعله إلا إذا أرغم على فعله".

محاضرات عامة للشعب الجزائري في مدنه وقراه:

كان الأستاذ الرئيس لا يغفل جانب الشعب الكادح، والمنتشر في أصقاع وطن تزيد مساحته عن (2.300.000 كم مربع)، وتتباعد مدته بمسافات كبيرة يكلفُ السفرُ إليها في غالب الأحيان أكثر من (500 كم) بين مدينة ومدينة. ومع ذلك، وفي يوم الخميس من كل أسبوع وعلى الساعة الحادية عشرة صباحا، بعد انتهاء إلقاء آخر درس له في اليوم الأخير من الأسبوع، يسارع إلى القطار ليركبه

(1)ـ تُنظر تفاصيل محاولة اغتيال ابن باديس في كتاب (صراع بين السنة والبدعة) للشيخ أحمد حماني رحمه الله، وكتاب (الإمام عبد الحميد ابن باديس لهذا حاولوا اغتياله)، للأستاذ محمد الصالح الصديق.

إلى مدينة الجزائر، أو وهران، أو تلمسان، أو بسكرة، أو بجاية، أو سطيف، وغيرها من أمهات المدن والقرى الجزائرية، وما أكثرها، فيصل إليها ليلا أو صباح الغد الباكر، وبعد صلاة الجمعة في أحد مساجد جمعية العلماء، يلقي درسه في المسجد أو في أحد نوادي المدينة. وبعد المحاضرة يقفل راجعا إلى قسنطينة، فما أن يحل صباح الغد حتى يكون قد قطع المسافة بين تلمسان وقسنطينة بالقطار، وهي عبارة عن (1200 كم تقريبا)، وذلك ليفتح دروس الصباح يوم السبت في الجامع الأخضر.

ولعل مما يجمل ذكره أن الأستاذ الرئيس كان مشتركا بالسكك الحديدية الجزائرية سنويا في الدرجة الأولى، وذلك كل ما يتقاضاه على عمله من صندوق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. أما المخصصات، فلم يكن يقبل منها شيئا أبدا، لأنه في غنى عنها بفضل من الله، ولقيام أسرته بكل مصروفاته اليومية والعامة كلما احتاج إليها، وهي ثرية كما لا يخفى.

وكان الأستاذ الرئيس في محاضراته العامة شخصا آخر يتقمص قوة شعب يمده بالتأييد، ويفديه ومبادئه ـ التي هي مبادئ الإسلام المتحرر ـ بالنفس والنفيس، ويتعرض لكل العقوبات والغرامات معتزا فخورا ملتذا بما يلقى في سبيل الحياة الحرة الكريمة التي يدعوه إليها عبد الحميد بن باديس، وكان يقول لهذا الشعب العربي الماجد المضطهد بكل أشكال الاضطهاد، كان يقول له يوما في مدينة بجاية عاصمة عبد المؤمن بن علي الموحدي[1] في وقت من الأوقات: أيها الشعب الصبور المكافح "لقد درست تاريخ الأمم، فوجدت الأمم تنهض بشيئين اثنين؛ إما بكثرة العلم، وإما بكثرة الظلم، أما العلم فنحن فيه فقراء، وأما الظلم فنحن فيه أغنياء، اللهم إن كنت تريد إنهاضنا بكثرة الظلم فنحن لك من الشاكرين".

---

(1)ـ خليفة المهدي بن تومرت ومؤسس دولة الموحدين المؤمنية سنة 524هـ، 1130م. طرد الصقليين من الساحل الافريقي وأنهى حكم بني زيري وبني حماد. توفي سنة 558هـ، 1163م.

وكان في محاضراته القيمة هذه كثيرا ما يخاطب الفرنسيين الذين يخادعون أنفسهم بأن الجزائر أضحت نهائيا وإلى الأبد مقاطعة فرنسية، فلا حياة لأبنائها الفرنسيين (من الدرجة الثانية) جميعا في الجزائر إلا ضمن المقاطعات الفرنسية الأخرى، مثل بروطانيا، والسافوا العليا، وكورسيكا، ومن المستحيل أن يكون له مستقبل آخر مع غير فرنسة الأم الرؤوم، فالأمة الجزائرية وهم وخيال، والأمة العربية قضي عليها ولن تجمعها مرة ثانية أية أقدار. يسمع ذلك عبد الحميد، ويسمع أمرَّ منه وأسوأ، فيقول رادا على هؤلاء الغلاة العمي الذين أعمتهم مصالحهم الخاصة حتى قبل مصلحة فرنسة نفسها كدولة:

"إن الأمة الجزائرية موجودة، لها مقوماتها من تاريخ ولغة ودين، وعادات مميزة، لها محاسنها ومساوئها ككل الأمم، وهي ليست فرنسية، ولا تريد أن تكون فرنسية، ولو أرادت فرنسة ذلك"، "لأن العلاقات بين الشعوب تبنى على أساس أنا أنا وأنت أنت، أما أن تصبح أنت أنا وأنا أنت فذلك عين المستحيل". "وإذا قيل أنها غير موجودة الآن، فكم من دول كانت غير موجودة وهي اليوم موجودة، وفرنسة نفسها احتلها الانجليز والجرمان ثم انبعثت وأصبحت موجودة وهزمت أعداءها بل واحتلت بلدانهم أكثر من مرة، وتشيكوسلوفاكيا لم تكن موجودة، وبولونيا، ويوغسلافيا لم تكن موجودة كما هي عليه الآن، فلماذا لا تكون الجزائر واحدة من هذه؟".

وحين كَثُرَ الجدل وتنازعت الفئات السياسية في أسلوب العمل واختيار الطريق السوي في نظرهم؛ فقال قوم بالاندماج، أي إدماج الشعب الجزائري في الشعب الفرنسي والتمتع بالحقوق الفرنسية الكاملة، ولو إلى حين، ثم يغير الله الأحوال (تراجع هؤلاء فيما بعد). وقال آخرون: إن الجزائر أمة غير فرنسية ما في ذلك شك، ويجب أن تصبح دولة ذات سيادة، ولكن في نظام متسامح بل وعلماني في أهدافه العليا (تراجع هؤلاء أيضا).

حين واجه الشعب العربي المسلم في الجزائر هذه الأفكار ولم يقبلها، بل ورفضها، عبر عن رفضه ذلك الزعيم الخالد عبد الحميد بن باديس في قصيد من (41) بيتا ألقاه بمناسبة عيد المولد النبوي في كلية الشعب بمدينة قسنطينة في احتفال أقامته بالمناسبة جمعية التربية والتعليم التي يرأسها هو، كما ألقاه أيضا في ذكرى الأستاذ بشير صفر التونسي بقصر الجمعيات الفرنسية بتونس بعد أن ألقى خطابا تاريخيا هناك وصف بأنه أول خطاب وطني سمع بتونس من عالم ديني كان ينعت عند الأجانب بأنه (أعظم شخصية في المغرب الإسلامي). وهذه مقاطع من القصيد الذي حدد فيه عبد الحميد بن باديس منهج الحياة والاتجاه للشعب الجزائري في حاضره ومستقبله، وسمعه الشعب ووعاه، وأصبح نشيده في الحواضر والبوادي وفي المدارس ووحدات جيش التحرير وجبهة التحرير الوطني في معاقلها أيام الكفاح المسلح:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذ
أو رام إدماجا له ... رام المحال من الطلب
يا نشء أنت (رجاؤنا) ... وبك (الصباح) قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل وال ... إحسان واصدم من غصب
وأذق نفوس الظالمي ... ن السم يمزج بالرهب
واقلع جذور الخائني ... ن فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامدي ... ن فربما حيي الخشب
من كان يبغي ودنا ... فله الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا ... فله المهانة والحرب

هـــذا نظـــام حيـاتـــنا بالنـــور خـــط وباللـــهب
حتـــى يـــعود لقومـــنا مـــن مجـدهم مـــا قـد ذهـب
ويـــرى الجزائـــر رجعـــت حـــق الحيـــاة المستلـــب
هـــذا لـــكم عـــهدي بـــه حتـــى أوســـد في التـــرب
فـــإذا هلكـــت فصـــيحتي تحيـــى الجزائـــر والعـــرب

العربية لغتنا:

نعم، إن اللغة العربية لغتنا منذ أربعة عشر قرنا من التاريخ العربي الإسلامي في المغرب، فلم تسجل هذه البلاد وقائعها ولا أحداثها الكبرى إلا باللغة العربية، ولم تؤلف في كل العلوم والفنون والآداب إلا باللغة العربية، ولم تعبر عن أحاسيسها وهواجسها وأخيلتها نظما ونثرا وغناء ولحنا إلا بلغة الضاد وطريقة بنائها وتركيبها للكلمة والقطعة الشعرية والأغنية منذ الفتح الإسلامي إلى هذه الساعة وإلى الأبد بإذن الله، وذلك لأنها أخذت العربية وفنونها بدلا عن لهجاتها الأمازيغية القديمة التي تعبر بها في حاجياتها اليومية البسيطة، محافظة على الإسلام نفسه، فلا وجود لحضارة الإسلام ولا يمكن أن تفهم تعاليم الإسلام فهما حقيقيا إلا بفهم مقدار من مفردات اللغة العربية التي تدخل في صلب الدين نفسه، فالفاتحة والسورة وألفاظ الأذان والتكبير في الصلاة والتلبية في الحج، كلها تردد بلسان الدين، وهو ما يسلم به كل مسلم منذ عرف الناس الإسلام حتى هذه الساعة، ومن شذ فلا حكم له.

على أن المغرب العربي في كل مراحل تاريخه لم يعرف لغة رسمية يعبر بها ولاتُه وحكامُه وعلماؤُه وعامة الناس فيه إلا اللغة العربية مهما كانت التعابير بها ضحلة وهزيلة في عصور انحطاطه، أما العهود الزاهرة فلا تحتاج على برهان في أن المغاربة في العدوتين، وعلى ضفتي الأبيض المتوسط والداخل في شبه جزيرة

ايبيريا أو الأندلس والمغرب الكبير وجزائر البحر الأبيض والأطلسي، خلفوا ثروة فكرية وتراثا علميا إنسانيا لا ينازع في علو مكانته أحد حتى عند الخصوم من أعدائنا التقليديين الذين ذقنا منهم الأمرّين قديما وحديثا.

فالعربية، في نظر الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس الصنهاجي، إذن، لغة البقاء والوجود والخلود لكل مقوماتنا كجزء من الأمة العربية الإسلامية في سائر أصقاعها، فيجب أن تكون لغة التعبير، ولغة الخطابة والكتابة والشعر والبيان، ولابد أن تكون عزيزة في عقر دارها ولدى شعبها، فما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولابد أن تسود ديارها وشعبها، وتصبح يوما اللغة الرسمية والقومية للجزائر الحرة المستقلة ولو بعد حين، وبتضحيات قد تفوق طاقة الإنسان وتصوره ولكنها ضرورية حتمية حيث لا تبديل، وحيث سادت بقوة الحديد والنار لغة المستعمر الدخيل، وأعلن هذا بصفاقة رفضه لكل وجود للعربية صاحبة الحق الشرعي في التعبير عن التراث الفكري للحضارة العربية الإسلامية فيما أسماه الدخيل: الجزائر الفرنسية.

وكأن مجيئ عبد الحميد بن باديس في هذه الظروف الحرجة على اللغة العربية كان على موعد مع القدر، فلقد ثار ثورة لا هوادة معها ضد المستعمر المغتصب، وتصدى لمقاومة حبائله وطغيان ولاته، مؤمنا بأن وراءه شعبا يؤازره ويفدي لغته العربية بنفسه ونفيسه، فقد سارع لبناء مدارس قرآنية حرة يعلم فيها خريجون من المعاهد العربية الإسلامية تملأ نفوسهم العزة القعساء، وتسمو بهم نحو المعالي الإرادة المبدعة النزاعة للنهوض والثورة الفكرية إيمانا بالوجود الحر الكريم أو السقوط في ميدان الشرف ببسالة وإقدام.

ولقد سفه عبد الحميد بن باديس أحلام الاستعمار حين قال بأن الجزائر بربرية وهي آرية الجنس وانتماؤها للأمة العربية خرافة ووهم سخيف، أجل سفه أحلام الاستعمار الفرنسي في الحادثة التالية:

لقد فكر المستعمرون يوما عقد مؤتمر للبربر في عاصمة بلاد القبائل (تيزي وزو) ليعلن بواسطة بعض عملائه وقليل من المتنطعين من تلامذته الذين درسوا في معاهده أن البربر عنصر أجنبي عن العروبة والإسلام معا، وذاع الخبر وانتشر بسرعة البرق، فحزم تلامذة عبد الحميد بن باديس من أبناء البربر أنفسهم أمرهم واجتمعوا بدورهم، فجندوا لإفشال المؤتمر الاستعماري، وإن هي إلا جولة حتى ألغي المؤتمر ولم ينعقد، خوفا من غضبة الجمهور الثائر انتصارا للعروبة والإسلام في تلكم الديار فتنتصر الإرادة الحرة ويخذل الاستعمار وأذنابه، فيكتب عبد الحميد بن باديس في مجلته (الشهاب) مقالا رائعا عن العملية الدنيئة تحت هذا العنوان: "إن ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان".

ولندع الآن عبد الحميد بن باديس ليحدثنا عن إيمانه بهذه اللغة العربية الجميلة، وثقته بشعبه وقوميته العربية الإسلامية، حين يقول:

"لِمَ لا نثق بأنفسنا، وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها، ومواهب نستسخرها لما يرضي الله ورسوله؟ لنا مواهب مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا، وقد أعطانا من هذا الدين الإنساني ومن هذا الدين العقلي والروحي ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا، أعطانا منه ما لم يعط لغيرنا، فنحن ـ إذن ـ شعب عظيم يعتز بدينه، يعتز بلغته، يعتز بوطنيته، يستطيع أن يكون في الرقي واحدا من هذه الشعوب...

"إننا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول: إننا شعب خالد ككثير من الشعوب، لكننا ننصف التاريخ إذا قلنا إننا سبقناها في ميادين الحياة، سبقناها بهدايتنا، وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات الجهل...

"ذلك ما كنا فيه وسنعود إليه»وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المحرومة...

إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبه يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من آلام وآمال.

إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين، وخدم العلم، وخدم الإنسانية، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا"[1].

(من خطاب ألقاه عبد الحميد بن باديس في تقريره الأدبي بجمعية التربية والتعليم في اجتماعها السنوي، ماي 1939 م).

إن هذه الفقرات من خطاب رائع لأستاذنا عبد الحميد بن باديس مجد فيه اللغة العربية والجزائر المسلمة، تبرهن بوضوح عن فشل كل المخططات الاستعمارية الرامية لمحو الشخصية الجزائرية العربية المسلمة وفصلها عن العالم العربي الإسلامي الكبير، ولكن دون جدوى...

عبد الحميد وجمعية حقوق الإنسان:

لقد اتفق أن عقدت جمعية حقوق الإنسان إحدى جلساتها في باريس سنة 1927 م، وكان أن وجهت دعوة لعبد الحميد بن باديس للمشاركة في مؤتمرها، فلبى الدعوة، وحضر إلى باريس من الجزائر، وتحدث في المؤتمر شارحا وجهة نظر بلاده في حقوق الإنسان المهيضة فيها، والإنسان الكادح المعذب في

---

(1)- جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الرابعة ،عدد: 171، الجمعة 5 جمادى الأولى 1358هـ، 22 جوان 1939م.

ربوعها، وشدد النكير في كلمته التي ألقاها على المستوطنين الفرنسيين والحكومات الففرنسية الضالعة معهم في هضم حقوق الإنسان الأساسية في الجزائر، وكيف أن الجزائري في بلاده محروم من كل الحقوق المدنية، فهو إنسان يعتبر في نظر القانون الفرنسي الخاص بالجزائر من الفئة الثانية، فلا تعليم ولا صحة ولا خدمة اجتماعية موفورة للسكان العرب في المدن والأرياف على السواء، وأن العمال البسطاء يسخرون للقيام بالأعمال الشاقة في المزارع والمنشآت الفرنسية بأبخس الأثمان ودون تحديد للوقت ليلا أو نهارا، فإذا فاضت اليد العاملة الشاقة في الجزائر نقلوها إلى فرنسة لنفس المهام.

ولقد حذر عبد الحميد من العواقب الوخيمة التي ستسفر عنها مثل هذه المعاملة القاسية وهذا الإهمال الرهيب لشعب كامل يعيش ـ في فرنسة الحرة الديمقراطية التي أعلنت الثورة على الظلم والظلمة ـ على هامش الحياة، وبحكم قوانين استثنائية خاصة بالأهالي ترتكز كلها على الإجحاف والتمييز العنصري وحرمان الشعب العربي من كل وسائل الحياة، وجعل أفراده عبيدا ملكا لأسيادهم هم وأطفالهم وعوائلهم يكدحون جميعا، ولا يكادون يفون بحاجيات أسيادهم، وهم عشرة لواحد من المستوطنين.

إن من جملة ما ينتظمه القانون الخاص بالأهالي، المواد التالية:

1ـ أن الجزائريين العرب فرنسيون من الدرجة الثانية (دوزيام كوليج).

2ـ القضاء الذي يقضي بين الجزائريين قضاء خاص، ليس فرنسيا مدنيا ولا جزائريا إسلاميا.

3ـ يجوز حبس وسجن الجزائري بدون استنطاق، ودون استناد على قانون مسطر معروف.

4ـ يحق للحكومة في الجزائر أن تستولي على أية ممتلكات للأهالي، وتمكنها ممن تشاء وكيفما تشاء.

5ـ إذا تشاجر عربي وفرنسي على أمر ما يساق العربي إلى السجن مباشرة، ولا يُسأل الفرنسي من الدرجة الأولى إلا أمام القضاء.

6ـ يُحْرَم ويُحْظَر على العربي حمل أي سلاح أو آلة حادة ولو للصيد إلا لبعض المتعاونين، بينما يسمح لكل فرنسي أن يحمل أي نوع من السلاح حربيا كان أو للقنص أو التباهي واللهو وإشعار العرب بالتفوق الجنسي والامتيازات الخاصة لأبناء السادة أمام عبيدهم الأذلاء.

عبد الحميد بن باديس.. الصحفي

الصحافة العربية ابتدأها أفراد سبقوا عصر الإمام عبد الحميد بن باديس، ومنهم الأمير خالد بن الهاشمي[1] حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، والذي كان له دور سياسي في الجزائر انتظم جانبا مهما من النضال في أوساط المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي، إذ كان جنديا فيه ثم ضابطا برتبة نقيب وهي أعلى الرتب التي كان يرقى إليها عربي في الجيش الفرنسي يومئذ، لأنه شخصيا تخرج من مدرسة (سان سير) العسكرية بباريس، ومع ذلك لم تكن له أية حقوق كالضباط الفرنسيين أو المتفرنسين في اللفيف الأجنبي وغيره. ترك الأمير خالد الجندية الفرنسية، وشارك في انتخابات بلدية مدينة الجزائر فنجح فيها، وبدأ نضاله السياسي بأن أسس جريدة سنة (1920 م) سماها (الإقدام) تدافع عن آرائه، فما لبثت أن صودرت من طرف الحكومة، بل ما لبث هو الآخر إلا أن صدر قرار بنفيه من الجزائر إلى فرنسة، ثم غادرها إلى دمشق، وبها توفي في (9 يناير 1936 م) وهو في العقد السادس من عمره.

كما صدرت [عدة صحف]، عربية وفرنسية، قبل ذلك:

- (المصباح) مزدوجة اللسان، أسبوعية أصدرها في وهران السيد العربي فخار سنة (1904 م).
- (الرشيدي) صدرت في مدينة جيجل (1909 م).
- (الإسلام) صدرت في مدينة عنابة (1912 م) أصدرها الأستاذ الصادق دندن.

---

(1)ـ يُراجع بشأنه كتاب (الأمير خالد الهاشمي الجزائري) لبسام العسلي، نشر: دار النفائس، بيروت، 1986م.

- (النجاح) صدرت بقسنطينة أصدرها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي ومامي إسماعيل (1919 م)[1].

ولكن الصحافة الحرة الهادفة في الجزائر بدأ صدورها على عهد عبد الحميد بن باديس بظهور جريدة (المنتقد) لسان حال عبد الحميد بن باديس والعاملين معه في مدينة قسنطينة في (2 يوليو 1925)، وكانت بحملها لاسم المنتقد أنها أنشئت لهدف معين، إذ ما أحوج هذا المجتمع يومئذ إلى النقد والانتقاد تمهيدا للتغيير الحتمي من الداخل، وإعلانا للخصوم بأن ما يأتونه من الآثام لن يظل بدون حساب. وقد حملت جريدة (المنتقد) في صدرها هذا الشعار: (الحق فوق كل أحد والوطن فوق الجميع)، وراحت الجريدة تمارس خطتها كما شرحتها، فلقد انتقدت المجتمع الخامل، والشباب المائع المتنطع، ورجالا يُنسبون إلى الدين وليسوا من الدين في شيء، وما كان هدفهم إلا مناصرة الخصوم ومسايرة المحتلين في كل ما يشيرون ولو كان ذلك حربا على الإسلام والمسلمين، وما أكثر ما دعوا إلى قبول التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي ولو كان ذلك لمقاتلة إخوانهم المسلمين في المشرق أو المغرب على السواء. كما هاجمت المنتقد أقطاب الاستعمار وابتزازهم لثروات شعب أضحى فريسة باردة لهم لما جردوه من أرضه وسخروه يدا عاملة شاقة تخدمهم في المزارع والبيوت، فإذا فاضت هذه اليد العاملة هجروها لفرنسة لتشقى هنالك مرة أخرى.

حقا بأن هذا النوع من الانتقاد والنضال الحر الجريء بواسطة القلم أيضا ما كان ليرضى عنه المستعمرون وعملاؤهم ولذلك عمدوا إلى مصادرة الجريدة وإلغاء رخصتها بعد أن صدر منها (18) عددا لا غير.

---

(1)ـ تُنظر التفاصيل حول هذه الصحف وغيرها، في كتاب (الصحف العربية الجزائرية)، للدكتور محمد ناصر، نشر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

ولكن عبد الحميد طالب برخصة أخرى لإصدار جريدة باسم (الشهاب)، أسبوعية أولا، ثم حولها إلى مجلة شهرية، وكانت تحمل في صدرها كجريدة: (تستطيع الظروف أن تكيفنا، ولكنها لا تستطيع بإذن الله أن تتلفنا)، أما الشهاب المجلة فكانت تحمل الشعارات التالية: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)، (الحق والعدل والمؤاخاة للذين يقومون بجميع الواجبات)، (لنعول على أنفسنا ولنتكل على الله)، وكان شعارها العام (العروبة والإسلام والجزائر)[1].

وعاشت المجلة الشهرية منذ تأسيسها سنة 1925 إلى إيقافها نهائيا قبيل إعلان الحرب الكونية الثنية سنة (1939)، ولقد كانت شهابا ثاقبا، فمن اعتدى على حرمات هذا الشعب يجد له شهابا رصدا، لقد صاولت ونازلت الطغاة والظلمة وأعوانهم بدون هوادة، وعودت الشعب النضال والكفاح الشريف في كل حين، وعملت على جمع الشمل ونشر الفضيلة وتوضيح المنهاج الديني وتقديمه للناشئة والعلماء في أسلوب جديد أفاض عليه من أنوار الكتاب والسنة، أيقظ الضمير، وأنعش النفوس، وأرشد لأقوم طريق، وهدف لأنبل غاية، فكان الظفر حليفه في كل أطوار حياته.

كذلك كان عبد الحميد الصحفي، العالم الديني، والمصلح الاجتماعي، والثائر على البغي أنى وجد ومن أي جو هبت رياحه وأعاصيره. وكذلك مارس رسالة الصحافة الهادفة النزيهة دون أن يقصر في واجب، ولا أن يخل بشرف المهنة حتى النَّفَس الأخير من حياته.

---

(1)ـ أعادت دار الغرب الإسلامي ببيروت نشر مجلة (الشهاب) كاملة في 16 مجلدا، سنة 2000م، كما نشرت كتيبا ملحقا بها من تأليف الشيخ عبد الرحمن شيبان بعنوان (مقدمة مجلة الشهاب)، تضمن تعريفا وافيا بها، وتحليلا مفصلا للموضوعات التي تناولتها خلال مسيرتها.

عبد الحميد بن باديس.. المربي المثالي

كان عبد الحميد بن باديس واحدا من هؤلاء العلماء الأعلام الذين آمنوا ودخل الإيمان ـ بدون ريب ـ في قلوبهم، فقد كان ـ في تربيته وتوجيهه لتلاميذه ـ علَمًا فردا:

كان يرى أن المعلم أب قبل أن يكون أستاذا، يتقصى أخبار طلابه، ويعمل على أن يلم بكل صغيرة وكبيرة منها حتى يقوى على التغلب على معالجتها.

إن الطلاب تبنى على سواعدهم صروح المجد، ويكمُلُ ـ بإنجازاتهم في التضحية ونسيان الذات ـ بنيان الأمة في نهضتها وحضارتها، وذلك إذا وُجِّهوا التوجيه الصالح.

لقد نذر عبد الحميد بن باديس نفسه لمدأ تغيير وضع هذه الأمة وانتشالها من التردي الذي هيمن عليها، ولن يتحقق مبدأ التغيير إلا إذا هُيِّئَت له أسبابه، ولا يمكن أن يوضع موضع التنفيذ إلا إذا جندت له جحافل من الرجال والنساء المؤمنين الصادقين.

إن عبد الحميد يرى أن الشاب أو الشابة يجب أن يكون إنسانا مهذبا قبل أن نحشو دماغه بالمعارف حشوا حتى يغدو بمثابة خزانة علم لا تنفع نفسها، ولا ينتفع من محتوياتها أحد ما دامت مغلقة. ومن ثم ينطلق عبد الحميد لينشئ جيلا جديدا من الطلاب، بل من عامة الشعب أيضا، يكون مبدؤهم في الحياة: العمل الجاد الحازم وإن كان قليلا وبمعارف محدودة في هذه الحقبة من الزمن التي تفتقر البلاد فيها للعاملين المخلصين، كي يستطيعوا تحقيق الأهداف السامية التي كان يحلم بها الرجل الكبير.

إن التربية المثالية ـ في نظره ـ تتحقق بواسطة الاقتداء والتأثر، فقد كان سلف هذه الأمة يتلمسون طريقهم في التكوُّن والتكوين بالاقتداء بالعظماء من

الرجال وبما حققوا من جلائل الأعمال، يأتي الأعرابي البدوي المدينة فيرى عملا صالحا يأنس له، أو يلقى مربيا فاضلا يرتاح لتوجيهه فيعود إلى باديته وكأنه تخرج من مدرسة، لقد سمع ووعى، ثم قرر ونفذ.. ولقد كان تلاميذ عبد الحميد بن باديس يعملون أكثر مما يعلمون، كان مبدؤهم في الحياة: أن اعمل كثيرا، وإن كنت لا تعلم إلا قليلا.

وليس رجل الدين ـ في نظر عبد الحميد بن باديس ـ سوى خادم أمين لهذه الأمة، يعيش آمالها وآلامها، ويكِدُّ ويكدَح مثلَها ليعيشَ من عمل يده، ولا يرضى التمعش على تعاسة الآخرين، لا يُقبِّلُ يدا، ولا يُحني هامة لجبار مزيف، ويأبى كل الإباء أن تكون يده السفلى ويد غيره العليا، لا يجامل ذوي الثراء والنعمة، متواضعا لا يحقر إنسانا مهما كان تخلفه ووضعه المادي والمعنوي، لأنه يشعر من أعماقه أنه خادم للإنسانية كلها، ويجب أن يذوب في خدمة هذا الإنسان المتخلف قبل كل شخص آخر.

كان عبد الحميد بن باديس الأستاذ قدوة لتلاميذه، شعبيا موغلا في شعبيته، لقد ترك القصور والثراء مع ذويه آل باديس، وانتحى ناحية شعبية متواضعة ليتخذ فيها مقره وسط الشعب البائس، بل لقد تخلى نهائيا ـ بعد ذلك ـ حتى عن هذا المقر واكتفى بغرفة واحدة في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ولم يكن في هذه الغرفة إلا مكتب وسرير وعدة كراسي خشبية وجهاز إذاعة، وكفى. وكم يكبر الزائر لهذا الرجل حفاوته وإكرامه لزواره في هذه الغرفة، فهو الذي كان يقدم لهم بنفسه بعض ما يجدون عنده، وفيها يكتب مقالاته، للبصائر والشهاب، ويرد على كل رسالة تأتيه وبقلمه دون أن يكون له أي مساعد، ولقد يعجب الإنسان كيف يكفيه وقته لتلك المنجزات كلها، مضافا إليها استقبالاته للزوار والمستشارين وذوي الحاجات من طلابه والساعين إليه يسألونه عن أمورهم الخاصة والعامة في الدين والدنيا معا.

كان الرجل تقيا ورعا لا يقبل منك مديحا في عمل من أعماله، ولا يسمح أن يُذكر أمامه شخص بما يكره ولو كان من أعدى أعدائه، كان واثقا بالناس لا يرى أحدا منهم شرا كله، وكان يحسن الظن بزملائه ورفاقه وأفراد الشعب قاطبة، وكان يقبل منك أن تخالفه في الرأي ولو كنت صغيرا أمامه، وكم كان يبادرك بأن هذا الذي رأيت منه ليس الخطأ الأول من أخطائه ولا آخره، وما أكثر ما يخطئ (على حد قوله)، ويستغفر الله أنه كان خطاء، ولكنه يحمده أنه كان توابا كذلك، لأنه يرى أن من لا يعمل هو الذي لا يخطئ أبدا..

ومن الطرائف في هذا؛ أن أحد الفرنسيين من رجال العلم والمعرفة كان يدير صحيفة يومية في مدينة قسنطينة هي (لا ديبش دو كونسطانطين)[1] التقى به في الطريق فقال له: يا عبد الحميد ألست مخطئا في حق هذه الأمة الفرنسية التي تريد أن تجزئها بعد أن توحدت وأصبحت تشكل وطنا واحدا في فرنسة وفرنسة ما وراء البحار؟ إن الفرنسيين يكرهونك وإن كنت أنا أحترمك ـ لتحفظك هذا.. فقال عبد الحميد للرجل: إن كانوا حقا يكرهونني فهذا الذي يجعلني أمضي في طريقي، لأنني أكون يومئذ في نظر الحق وفي نظر شعبي مخلصا لبلادي وقومي، وإذا ثبتت هذه، كما تقول يا صاحبي، فهي وحدها البراءة التي تبرئ ذمتي يوم القيامة أمام خالقي في أنني كنت عبدا له وحده ليس غير. أم الفرنسيون فأنا أحترم عواطفهم نحوي، لأنني أيضا لا أريدهم أن يكونوا خونة لبلادهم وصنائع لغيرهم، ولكل منا طريقه في الحياة واختيار الأسلوب الذي يسير عليه، وإن كنت على علم بأن الحرية التي انتزعها الفرنسيون من مستعبِديهم ولو كانوا من أبناء جنسهم انتزاعا يوم هدموا الباستيل[2] وحرروا

(1)- La Dépeche de Constantine.

(2)- سِجْنٌ في باريس، اقتحمه الثوار في 14 جويلية 1789، فكانت بداية الثورة الفرنسية، وأصبح سقوطه رمزا للحرية والانتصار على الاستبداد عند الفرنسيين.

من فيه من العظماء ليس لها تآويل مختلفة، فالحرية حرية على الدوام لا تتجزأ ولا هي حق لشعب دون آخر وإنما هي حق للجميع، وقد ولد الناس جميعا أحرارا متساوين، ولابد أن يكونوا كذلك إن لم يكن اليوم فغدا، لأنه ليس من العدل أن يهضم الإنسان أخاه الإنسان، ولا أن يستغل ضعفه الحسي أو المعنوي، وليس من حق أي مخلوق أن يحجب الشمس عن الآخرين، ولا أن يمنعهم حق التنفس ولا حق تقرير مصيرهم كما يهوون.. ثم أردف عبد الحميد قائلا: ومع ذلك فأنا أشكرك على صراحتك وأقدر فيك صراحتك يا زميلي (الوسياني)..

أجل، لقد كان عبد الحميد إنسانا بهذه الصفات كلها، وكان موقِنًا بأنه على هدى وبصيرة، وأن أمته ستحيى وأن بلاده ستقرر مصيرها سواء في حياته أو بعد رحيله عن هذه الدار الدنيا إلى الآخرة، ولا سيما وقد مهد لكل ذلك، وأرسى أسسا متينة للنهضة لا بد أن تكمل من بعده ولو بعد حين..

المعارف الفرنسية في الجزائر:

إن المعارف الفرنسية في الجزائر لم تُخْلِصْ يوما للعِلْم فتُقَدِّمَه للشعب العربي في البلاد نزيها مجردا من الهوى والغرض، فلقد كان العلم أيضا من وسائل الدعم لبقاء الاستعمار الفرنسي طويلا في المستعمرات، فهم يُزَوِّرُون المعارف، ويدُسُّون في تقديمها، ويضعون قواعد لها تعطى للناس جيلا بعد جيل حتى تتحول إلى حقائق علمية في نظرهم: أن الجزائر كدولة ذات كيان وحدود لم تكن موجودة في التاريخ قبل مجيئ الفرنسيين إليها. وأن اللغة العربية لغة أجنبية عن البلاد، لأن لغة البلاد لغة آرية أصيلة، وتلك لغة سامية وافدة، ثم هي ميتة لا تعايش الزمن ولا تقوى على هضم التقنية الحديثة في تعابيرها السميكة التي لا تكاد تخرج في عموم ألفاظها عن وصف الجمل والصحراء، فإذا تخطت ذلك عييت وعجزت، ومن الخير أن تُستبدل باللهجات العامية المحلية، فهي أرقى منها. ومن هذا المنطلق كلفوا من ألف كتبا دراسية

وقواميس مزرية مضحكة يتفكه بألفاظها حتى الأطفال الصغار. أما كتب الجغرافية والتاريخ وعلم الاجتماع فقد ربطوها أصلا بالثقافة الفرنسية، ويشرحون التاريخ بصفة خاصة للطلاب العرب من زاويتهم الحاقدة الخاصة، وكله هزؤ وسخرية وازدراء من الأمة العربية وحضارتها وفتوحاتها وأهدافها، لم يسلم في ذلك الرسول العربي وخلفاؤه الراشدون، والقادة العسكريون، والعلماء الذين شهد لهم التاريخ بالعظمة والعبقرية والدراية في كل ما عالجوا من أوضاع مدى تاريخهم الوضاء، ولا سيما منذ فجر الإسلام حتى القرن الرابع للهجرة.

إن المعارف الفرنسية وَصَمَتْ في الجزائر والمستعمرات الفرنسية جبينَ العِلْم الفرنسي بالعار يوم زعمت بأن سكان الجزائر مثلا أوزاع من الأمم والأجناس لا تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة ولا يمكن أن تقوم لهم قائمة ما لم يندمجوا في الأمة الفرنسية ولم يتخلوا عن عاداتهم وتقاليدهم المتعصبة المتخلفة. إن الإسلام عماده التعصب وهدفه الهيمنة على العالم بواسطة حد السيف، وإن شن الحرب على الأمم الأخرى أس من أسسه الدائمة، وذلك لإكراه الناس على اعتناقه [﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[1]]، ومن لم يرض به دينا جرد السيف عليه لإقناعه، ومن لم يقتنع قطع الإسلام رأسه تنفيذا لأمر الله وإطاعة لأوامره (كذا)..

أجل، إن هذه المعارف التي علمتها فرنسة الاستعمارية لأبنائنا أصبحت قواعد مسلمة تدرس في كل مراحل التعليم حتى أضحى أبناؤنا يؤمنون بمحتواها، وشرعوا يبررون تنكرهم للعروبة والإسلام بهذه المعلومات، وأن كل محاولة أخرى لرقي الجزائر وتقدمها فاشلة ابتداء، وأن هذا الذي درسوه في المدارس الفرنسية أخذت به عدة دول فتقدمت، في الغرب والشرق على

(1)ـ سورة البقرة، من الآية: 256. وإيراد الآية في هذا الموضع اعتراض على كلام الفرنسيين وردٌّ عليهم.

السواء، ولعل أعدل مثل على ذلك "الكمالية في تركية" والبلشفية في روسية. ولقد نشأت في الجزائر ناشئة تدعو إلى هذه المذاهب، حتى إذا جاء ابن باديس وتصدى لكل هذه التخرصات والتزييف العملي، وبواسطة نشر تعاليم الإسلام الحقة خالية من كل دس وتزييف ورهبانية مقيتة أخذ بها بعض العلماء المنتسبين إلى الإسلام وهم أجهل خلق الله بهذا الدين الحنيف، بدأ هذا الشباب الضال يفكر فيما تلقاه من معارف مضللة، وهَبَّ بعد ذلك يُناصِرُ العلماءَ الأحرار في الجزائر بعد أن استمع إلى دروسهم ومحاضراتهم ووجدها ليست من النوع الذي كانوا تلقوا بعضه حتى من علماء منسوبين إلى الإسلام في المدارس الدولية الثلاث التي كانت فرنسة أنشأتها لتخريج جماعة من رجال القضاء في كل من قسنطينة والجزائر وتلمسان.

على أن الذي زاد الأمر سوءا في هذه البلاد المنكوبة بالاستعمار هو الهزال الذي كان عليه علماء الدين يومئذ في الجزائر، وشدة العداء الذي كان بينهم، فهم مع وَهَنِهِم كانوا يتنابزون بالألقاب ويتفاخرون بالأنساب، ويتعاظمون على الشعب وهم أضعف خلق الله أمام ساداتهم المستوطِنين الفرنسيين. لقد كان العالِمُ المسلم يتخذ كل الوسائل الوضيعة لإرضاء أسياده، وكان المنسوبون إلى الطرق الصوفية منهم زورا وبهتانا أولياء للمستوطنين الفرنسيين يحوطونهم بكل رعاية في منازلهم إذا زاروهم، ويطعمونهم ويقدمون لهم الحلال والحرام من المأكولات والمشروبات ولا يأبهون. وكان المستوطنون بدورهم ينعمون عليهم بتقديم أعلى الأوسمة التي تحلي صدورهم جزاء خدماتهم التي قدموها للدولة، وكان أولئك العلماء يصدرون الفتاوى يبررون فيها للدولة أن تجند أبناء المسلمين للقتال متى شاءت، وكانوا يدعون لها بالنصر في المساجد. وكان كل عالم يشتم العالم الآخر بأسوأ الكلمات البذيئة والهجاء المر، وكان الاستعمار يغذي ذلك بوسائله المتعددة حتى لا تقوم لهذه الأمة قائمة ولا تتاح للإسلام

فرصة لينهض من كبوته تلك، ولولا أن الإسلام كان قويا بتعاليمه يدافع عن نفسه بنفسه في هذه الديار دون تقديم عمل يذكر من طرف أتباعه له، لولا ذلك لكانت الكارثة أعظم. ولا غَرْوَ أن تكون تلك القوة الجبارة في الإسلام الخالد هي التي جاءت بعبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هذه الآونة بالذات..

التعليم الحر في الجزائر:

كان التعليم في الجزائر كله يقدم للمحظوظين من أبنائنا الذين وجدوا الأماكن في المدارس الافرنسية باللغة الفرنسية لغة المحتل، أما العربية فكان محرما تعليمها أولا، ثم سُمِحَ في ظرف معين أن تُعَلَّمَ باللهجة الفصحى في المدارس الثلاث التي أنشئت في عهد نابليون لتكون بمثابة جامعة إسلامية يباهي بها الأزهر أو الزيتونة عندما يؤسس امبراطورية عربية على البحر الأبيض المتوسط كما كان يحلم بها، غير أن العواصف عصفت به، فتحولت جامعته في النظام الجمهوري إلى مدارس ثلاث لتخريج رجال سلك القضاء الإسلامي الذي كان يبت في القضايا الشخصية وبعض العقود في الأنكحة والتركات وما إليها.

إذن، كان لزاما على عبد الحميد بن باديس ورجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وغيرهم من فضلاء الناس أن يسعوا لإنشاء المدارس العربية الحرة، فشرع أولئك في بناء شبكة منها ما لبثت إلا يسيرا حتى استقام أمرها وكثر عددها والملتحقون بالتعلم فيها، فلقد بلغ عددها إلى ما قبل ثورة 1954 مئات المدارس القوية ذات الطابع الهندسي المميز حيث كان معظمها يبنى على الطراز الأندلسي الجميل، وبلغ عدد المعلمين فيها ألوفا بين الرجال والنساء، وبلغ عدد الطلاب والطالبات والتلاميذ والتلميذات فيها ما يربو عن (50 ألف) تلميذ وتلميذة وطالب وطالبة، كما بلغ عدد من التحق بهذه المدارس من المسنين

الذين يطلبون التعلم ومحو الأمية عدة ألوف. ولم تكن هذه المدارس، أمام ازدياد طلبات الشعب في إلحاق أبنائهم بها، لتكفي للجميع، فكان التعليم فوجيا، تقدم الحصص التي لا ينتظمها الدوام الرسمي في ساعات الفراغ وأيام الإجازات الأسبوعية والموسمية، كما أن التعليم كان في مرحلته الأولى مختلطا بين الذكور والإناث لقلة الأماكن وقلة المعلمين والمعلمات، ولا يفصل بين الطلاب والطالبات إلا في سن المراهقة. وبذلك استطاعت هذه المدارس أن تستوعب أكثر ما يمكن من المعلمين[1].

ولعل مما يزيد الأمر وضوحا أن نعلم أن هناك من كان يَدْرُسُ أبناؤُه في المدارس الدولية، حتى إذا تأسست المدارس الحرة أخرجوا أبناءهم ـ ولا سيما البنات ـ من مدارس الدولة وألحقوهم بالمدارس الحرة، وقد هددت الإدارة الاستعمارية الموظفين من أولياء أمور التلاميذ أنها ستقطع عنهم المنحة العائلية إذا هم لم يعيدوا أبناءهم للتعليم الرسمي. فتحدى الموظفون رؤساءهم، وقطعت الإدارة الاستعمارية منح أبنائهم، ولكنهم أمام وازعهم الديني والقومي لم يعبأوا بما حدث، وظل الأمر في صراع بيننا وبين الاستعمار إلى أن سُقِطَ في يد الإدارة الاستعمارية وبدا فشلها في المقاومة، ويومئذ فقط اعتبرت اللغة العربية لغة معترفا بها رسميا، وقررت أن تدرس في المدارس الدولية لمن يريد، على أن تكون هذه اللغة ذات شكلين: اللغة الدارجة الجزائرية (وهي عشرات اللهجات)، واللغة العربية الفصحى وتفرض فقط في المراحل الثانوية العالية على الطلاب الذين سيتوجهون نحو الوظيفة العمومية في الدولة، كما سمحوا في النهاية بالتوقيع بها مثل الافرنسية لمن لا يعرف الفرنسية، وما أكثر من لا يعرف الفرنسية في الجزائر، لأن المستوطنين في الجزائر (ليسوا كالفرنسين

---

(1)ـ لعل من المفيد في هذا الإطار؛ مراجعة كتاب (المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر)، في أربعة أجزاء، وهو من تأليف الأستاذ محمد الحسن فضلاء، نشر: دار الأمة: الجزائر، ط 1، 1999. فهو يتناول بالتعريف الوافي كل المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

في فرنسة، لا يحقدون كثيرا على العرب) لم يُعَلِّمُوا الجزائريينَ لا لغتَهم العربية ولا الافرنسية اقتناعا بأنهم إذا عَلَّمُوهُم تحرروا من الرِّقِّ ولم يعودوا يقبلون تسخيرهم في الأعمال الشاقة التي كان يتطلبها وضعهم الاستعماري في استخدام هؤلاء (الأشقياء) من العرب والبربر الذين خلقوا في نظرهم لخدمتهم ليس غير، واقتناعا أيضا بأن العلم والاستعمار لا يمكن أن يتعايشا، فإذا تعلمت أية أمة أسرع المستعمرون إلى التخلي عنها والهروب بثرواتهم التي استنزفوها من دمائهم إلى جهات أخرى من العالم لا يوجد فيها داء مقاومة الاستعمار باللغة التي يفهمها، وكذلك فعل المستوطنون الفرنسيون، فقد بدأوا التفكير في الهروب حتى قبل الثورة العارمة سنة 1954، هربوا إلى كندا وإلى أمريكا اللاتينية واستراليا، وإلى فرنسة نفسها، ولكنهم مع كل ذلك لم يستطيعوا أن ينسجموا مع الأجناس التي نزحوا إليها، وحتى في فرنسة نفسها يشكلون مجتمعا خاصا بهم ولا ينسجمون مع الفرنسيين الأصلاء الذين لم يعرفوا المستعمرات ولم يتذوقوا لذة الاستعباد لغيرهم، فهم أشبه بالمنبوذين، وكان في مقدورهم لو أرادوا أن يبقوا في الجزائر ويخلقوا آلاف المشاكل في وجه الدولة الجزائرية الجديدة، ولكن الله أنقذ الجزائر منهم لما تخيلوا أنهم بالذهاب من الجزائر تتحول الجزائر إلى صحراء، ولكنهم بعد سنوات رأوا أن الصحراء تحولت إلى جنة وبدون الفرنسيين..

ومن الجدير بالذكر؛ أن المدارس الحرة التي كونها الشعب الجزائري قبل الثورة، ومدارس جيش التحرير في الجبال زمن الثورة، والطلاب الذين نزحوا إلى الشرق والغرب ليدرسوا أحرارا، كان لهم جميعا فضل كبير في إنجاح الثورة المسلحة..

إن أية ثورة مسلحة لا يكتب لها النجاح إلا إذا سبقتها ومهدت لها الثورة الفكرية، وكانت مدرسة عبد الحميد بن باديس بحق في طليعة هذه الثورة الفكرية(*).

(*)ـ إلى هنا ينتهي نص الكتاب.

إلى الرفيق الأعلى[1]

في يوم الإثنين الثاني من شهر ربيع الأول سنة 1359هـ، على الساعة الثانية والربع بعد الزوال، توفي رجل الجزائر وزعيمها الأمين الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، عن عمر يقارب إحدى وخمسين سنة، قضى ثمانية وعشرين منها في خدمة العلم ومصالح الأمة الجزائرية. ولقد ضرب الرقم القياسي في العمل، وحاز رضى قلوب سُرَاةِ الأمة وفضلائِها أجمعين، وخلَّف آثارا جليلة لن يمحوها من لَوْحِ الوجود أيٌّ كان لا الدهرُ ولا غيرُه، وخلق فكرة إصلاحية حُرَّةً في الأمة يدفعها جلاله أبدا إلى الخوض في الميادين والمغامرات غير عابئة بما ينتابُها من مشاق وأتعاب في سبيل ذلك مهما طال أمرها وتطاول، وسدَّد خُطَى المسيِّرين للحركات في هذه الأمة حتى أضْحَتْ تُشَابِه في أعمالها ونظامها كثيرا من الأمم الحية المتمدنة منذ عهد بعيد.

وتَرَكَ من بعدِه تلاميذَ كثيرين جابوا البلادَ سهولَها وجبالَها ينشرون لغة الإسلام ودين الإسلام حتى جدَّد من أمرها ما أسَرَّ العالم الإسلامي أجمع، وجعل المسلمين والعرب في سائر أقطارهم ينظرون الجزائر بعين ملؤها التقدير والإعجاب، بعدما علق بأذهانهم عنها شيءٌ كثيرٌ من المآسي والنكبات، وأصبح الجميعُ يتمنى على الله أن يلهمها الرشد في سيرها حتى تلتحق بأخواتها المتمدنات.

ولقد ظل الرجل دائبا في عمله، مستهلكا في خدمة هذه الأمة كل نفيس وغال طوال هذه السنوات كلها، غير حاسبٍ لضعفه البدني وحتى المالي أيَّ حسابٍ كان. ولقد أضحى أمرُ هذه الأمة في يد خلفائه من بعده، إن شاء الله، في أمانٍ تام لا يُخشى عليه من عوادي الدهر وغوائله، وإنما يتطلب مفعولُه منهم أن يضاعفوا أعمالهم ومجهوداتهم ليوجِدوا من ضعفهم - إن صح التعبير -

---

(1)- مقالة مخطوطة بيد الغسيري، وقفت عليها ضمن الوثائق الخاصة به في مركز أرشيف ولاية قسنطينة.

قوة مادية وأدبية واسعة النطاق كي يتمكنوا من السير بها في الميدان الحيوي المتاح لمَجَادَةِ أمتهم التاريخية العظيمة أشواطا وأشواطا، وليُحَصِّلوا لخَلَف تلك الأمة أغراضا بِعَاداً لابد لهم من الحصول عليها شاء من شاء وكره من كره.

ولقد حضر موكبَ جنازتِه كلُّ من استطاع ـ من تلاميذه وتلميذاتِه ورجال الشعب ونسائه من العمالات الثلاث ـ أن يحضر، فكان موكبا لم يسبقه مثيلٌ في تاريخ الجزائر غابرِه وحاضرِه على ما نعلم، وكان موكبا منظما تتوقف حيالَه مواكبُ زعماء الأمم المتمدنة خاشعة مقدِّرة معجَبة.

وكان النظام كما يلي: تكفلت مؤسسته الخالدة "جمعية التربية والتعليم الإسلامية" بقسنطينة بحفظ النظام، إذ عيَّنت من شُبانها ثلاثمائةِ شاب ليتولوا إعطاء الإرشادات اللازمة إلى المشيعين كي لا يختل النظام، وتكفل تلاميذُه بنقل جثمانه إلى مقبرة أسلافه حتى لا يتَرَاصَّ المشيعون على أعوادِ نعشِه يريدون المشاركة فيحدث ما لا يُرضي الدين ولا التقاليد الراقية، فعينوا من بينهم أربعة وثلاثين طالبا يتناولون النقل بالتناوب أربعة أربعة، واصطفت الجمعيات الإسلامية بمدينة قسنطينة: التربية والتعليم، جمعية السلام، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والكشافات الإسلامية: الرجاء، الإقبال، الحياة السطيفية الوافدة على قسنطينة قصد المشاركة، تلاميذ المدارس العربية والفرنسية بالمدينة، النساء، سائر الهيئات المختلفة، فكان عدد المشيعين يناهز المائة ألف رجل وامرأة.

ولا يسعُني في هذه الرسالة أن أذكر أكثر مما ذكرت عن الأستاذ، فللكتابة على مواقفه ومآثره وأخلاقه وإيمانه ميادين أخرى سيطول الحديث عنها، وسيطول عندما تسمح الفرصة إن شاء الله.

محمد المنصوري الغسيري

* رمل عنابة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط

مساء يوم الثلاثاء 23 أبريل 1940 م

في الذكرى الرابعة لوفاة ابن باديس[1]

بسم الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

أيها الحضور الكرام..

وسط هذه الأحداث والزعازع التي بَرَّحت بآلامها ومحنها بنفوس الجزائريين دهرا طويلا، تقلَّب شابٌّ من شبان الجزائر المسلمة، وبين هذه الربوع الكريمة نشأ فتاها المُنقِذ، فأهاب ببنيها إلى النهوض، وحببهم في العمل، واستفزهم إلى مشاركة العالم الجديد في الأخذ بأسباب الحياة، وأرشدهم إلى إشادة صرح هيكلهم الاجتماعي من جديد، وأبان لهم عما في نفوسهم من قوة الاستعداد والحيوية وأسباب النهوض، وعرَّفهم منزلتَهم كأمة لها ما لسائر الأمم من مقومات الحياة في الدين والعوائد واللسان، وأنهم إنما ساءت حالهم حين ساءت أعمالهم فأخلدوا إلى الأرض واتبعوا الشهوات، وأنهم ما ينقصهم إلا أنهم فرطوا في الدين والخُلق الكريم والأدب الرفيع حتى تداعى بنيانُهم للسقوط والاضمحلال. وما كان هذا الشاب والفتى المنقذ إلا سليل عائلة ماجدة كان لها في التاريخ شأن عظيم في خدمة العلم والمُلْك وتنسيق العمران سيذكرها التاريخ بها ما بقي التاريخ.

كان عبد الحميد بن باديس قدس الله روحه، كان المحتفل بذكراه الرابعة اليوم، فكم قدم لهذه الأمة من خدمات؛ تزعم الإصلاح الديني في وقتٍ ما كان الجزائرَ أحوج إليه، وقادها حركةً علمية ثأرت لنفسها من ظُلَم القرون الوسطى، تلك التي غبَنَت هذه البلاد فكادت تأتي على حَشَاشَة تُراثِها العلمي الزاهر، قادها حركة علمية أضاءت للجزائري السبيل، وكان لقيادتها نِعْمَ الدليل.

---

(1)- خطبة مخطوطة بقلم الغسيري لعله ألقاها بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة ابن باديس رحمه الله، وقد وقفت عليها ضمن الوثائق الخاصة بالغسيري في مركز أرشيف ولاية قسنطينة.

راعَ الجميع حقا ما أصيبت به هذه الأمة، وراعهُم حقا ما ادخرته الأيام لهذه الأمة، لقد ادخرت لهم الأستاذ الرئيس طيب الله ثراه، جاءها فهبَّت بمجيئه نسماتٌ على الجزائر حركت للعلم شَجْوَه وأعادت إلى الدين رَوَاءَه وإلى مكارم الأخلاق سُمُوَّها، فتقوَّم التفكيرُ وأُحسِن التوجيه وتَسَدَّدَتْ خُطَى المسيِّرين.

كان رحمه الله بَرًّا بدينه وبلاده، بَرًّا بعلمه وأفكاره، فكانت حياتُه وقفا على خدمة الجميع، نادى للإصلاح الديني والتعليمي فسارا رويدا رويدا ثم ما لبث أن جَدَّ جدُّهُما فهرع الناس يتلقونهما في كل صَقْعٍ من أصقاع الجزائر. ودعا للتأسيس، ففكر الناس، ثم هبوا يؤسسون وينظمون. وما مرت إلا سنوات حتى كان لنا معاهد ومدارس ومنظمات.

قاوم وليد الهمجية من العادات، فضعضع قواها حين زرع الحب بين إخوانه وأبنائه.

حقا، ما كان لرجل وجد الجزائر على نحو مما وجدها عليه الأستاذ الرئيس أن يُحْدِثَ فيها هذا الانقلابَ السريع لولا معونة من الله. نعم، نامت طويلا، وأذلتها الأيام كثيرا، فاسْتَرْعَتْ أنظار المخلصين من أبنائها، وأشفق عليها وواساها حتى أنصارُ الحقيقة من أبناء غيرها، ورَجَوْا لها مستقبلا باسما يخفف عنها بعضَ ما عانت من ضروب الجهالة والخُمول مدى هذه الحياة الماضية كلها، حقا إن حالها تدعو إلى الشفقة والرحمة.

أيها السادة الكرام..

إذا كان التاريخ يعيد نفسه، فالجزائر أمة من أمم التاريخ يجري فيها ما جرى في غيرها: موت وحياة، سقوط وارتفاع، وقد مرت على الجزائر كل الأدوار، فهاهي اليوم تستقبل عالما جديدا سيكون فيه للإنسانية المعذبة دَوْلَة، وللعدالة المنكوبة صَوْلَة، وسيتجدَّد التاريخ، ويحُل الصفاء، ويسود الإخاء، ويذهب الخصام، وينتصر الحق، ويزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

أيها السادة.. لم تكن حياة فقيد الجزائر بالنسبة للجزائر إلا بشيرا لهذا العالم الجديد، فلقد حلت بحلوله الرحمة بين السكان، وتآلف الجيران، وتكاتف الخلان.

هاجم الجهالة مدى ربع قرن حتى أوشك من الظفر، وحارب العادات السخيفة فأوهاها، وصاول الأباطيل وأنصارها ففراها.

كان فقيد الجزائر إنسانيا من الدرجة الأولى، لذا كانت خدماته إنسانية صرفة أعادت إلى أذهان محبي الحقيقة معنى نُبْلِ رجالِ الدين الصادقين، وكان مؤمنا إيمانا ذَكَّرَ الدنيا إيمانَ حواريِّي عيسى وأصحابِ محمد يوم امتحنتهم الأيام فأعيوها، وكان مخلصا لمباديه حتى اختطفته يدُ المنون واختاره الله لجواره.

أيها السادة.. إذا كان الناس يُذكرون بأعمالهم، فأعمال الأستاذ الرئيس في الجزائر تجعلُه في مقدمة من عرفتْ من العاملين لخيرها حتى الآن، ويضعه تاريخُ الرجولة في مصافِّ أبطاله الأمجاد في سائر عصوره، لنتصور وسطا كوسطنا هدَّت النكباتُ كيانه، وكادت تأتي على البقية الباقية من تراثه، أفكُنَّا نؤمن إيمانا جازما بنهوضه بمثل هذه السرعة؟

لقد أرتنا الأيامُ الجزائرَ جديدةً في شعورها وإحساسها، في تفكيرها وتوجهها، فكانت نهضتُها الحديثة صورة مصغرة عن مُقبِل أيامها الغراء، وكانت برهانا قاطعا لليائسين على أن الله قادر أن يبعث من في القبور، وكانت بيانا صريحا في أن ضُعف الأمم إنما هو نتيجة أغلاط تاريخية لابد من إصلاحها طال الزمان أو قصر.

أيها السادة.. إن الرُّزْءَ في فقْد الأستاذ عظيمٌ بحق، ولكن ذلك لا يوهنكم ويُرْخي هممكم فتستسلموا، لقد خلَّفَ فيكم جمعيةَ العلماء وما أدراك ما جمعية العلماء، وكفاكم فخرا بها ما أقامته من صروح التعليم بعد وفاته وبخاصة في هذا العام. وستخبرنا السنوات المقبلة أن الأستاذَ، عطر الله قبره، حيٌّ وإن عُدَّ في قائمة الأموات، وتخبرنا أن جهاده لم يذهب سُدًى، وسوف تمجده الإنسانية ما كان على ظهر الأرض إنسان.. فإليك يا روح الأستاذ في أرواح رجال الحقيقة نقدم أطيب التحيات، وإليك في الخالدين نرفع أزكى التهاني، وسلام أخير عليك في الأحياء والأموات. وسلام على الجميع ورحمة الله وبركاته.

حرر بقسنطينة يوم الجمعة 14 أبريل 1944

محمد بن أحمد المنصوري الغسيري

في الذكرى التاسعة لوفاته
الشيخ عبد الحميد بن باديس
والكفاح الاجتماعي[1]

الحياة كفاح، وكفاح الرجال من أجل الحياة هو عين الحياة المثلى، والأمم الإسلامية منذ تركت الكفاح من أجل الحياة، بل منذ أخلد علماؤها إلى الدَّعَة والخمول، ورضوا من الغنيمة برضى ملوكهم عنهم، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، منذ ذلك العهد حَلَّت بالمسلمين القارعة، وأصابهم ما أصاب الأمم قبلهم من العذاب الأليم، فتهدمت صروح مدنيتهم الزاهرة في الشرق والغرب، وتشتتت جموعهم، وانحلت أخلاق أسرهم، فكانوا لقمة سائغة للغرب حين جدَّ جده وسطا سطوتَه وضرب ضربتَه القاضية وأصاب الشرق في صميم كيانه الاقتصادي ومقوماته الحيوية الأولى، فاستسلم حينا، وقاوم أحيانا، ولكن في غير جدوى، ذلك لأن السوس نخر عظامه وأذهب رواءه وأصبح فريسة باردة لغيره، فافترسه في غير ما شفقة ولا رحمة.

وظل كذلك حتى أسفر العالم الجديد عن نظريات تجديدية، أَقَضَّتْ مضاجعَ الشرق، وجيَّشت عواطف بَنِيه الوطنية بين حنايا أضلعهم ففاضت ألوانا وأمواجا، ثم استحالت على مر الزمن إلى عقيدة مقدسة قوامها الكفاح والتضحية والكد والجد والثبات وراء العقيدة، والدأب في السير إلى الأمام، في سبل ملتوية شاقة محفوفة بالمكاره والأخطار.

كانت هذه النظريات التجديدية بلسما شافيا للمسلمين من أدوائهم وعللهم التي كادت تكون مزمنة لولا رحمة من الله، إذ قيض لهم من أنفسهم علماء مجددين جددوا لهم شؤونهم الدينية والدنيوية.

---

(1)- جريدة البصائر، العدد: 78، السنة الثانية من السلسلة الثانية، ليوم الاثنين 4 رجب 1368 هـ، الموافق ليوم 2 ماي 1949 م، ص: 7.

أجل، أبانت تلكم النظريات التجديدية للملأ الأكبر من المسلمين وغير المسلمين بأن ما عليه المسلمون اليوم من الانحطاط والتأخر لا يمت إلى الإسلام بصلة ولا يعرفه المسلمون المثاليون في أيامهم الزاهرة، وإنما يرجع سببه الرئيسي إلى فهوم خاطئة للأشياء اعتنقها المسلمون زمنا بعيدا، وذلك ما أضاع عليهم الدين والدنيا معا.

إن جهلهم بتعاليم الدين وروحانيته العليا هو البلاء الأكبر على حياة المسلمين الدينية، وما سقطوا دنيويا وروحيا إلا منذ أرادوه دينا خرافيا يمجد الزهاد والمعاجيز والكسالى، وحتى وإن لم يلتمسوا الرزق في خبايا الأرض ويروحوا في طلبه كما تروح الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[1].

نام الشرق كثيرا جراء هذه الفهوم الخاطئة، ونامت الجزائر ضمن أقطاره نوما هائلا مريعا، وجهلت جهلا فادحا مبيدا، وخسرت دينها ودنياها، وأضاعت سيادتها وكرامتها، فذلت وتألمت، وسخر منها القاصي والداني، واحتقرها المتفوق السائد في هذه البلاد، وضحك من جهلها أقل الأمم شأنا، ولقيت من العذاب ضروبا شتى، ثم ما راع العالم إلا نبتة تنبت في خير منبت، وزهرة تتفتح على خير فنن، في أزهى شجرة، تتأبى أن تصوح، صامدة للرياح الهوج، تتعطف يمنة ويسرة، تتخفى وراء فينان غصون أمها الرؤوم، تتنسم قطرات الغمام سحرا لتسبل منها على جوانحها من لألائها كل معاني الجمال والخير والصلابة والسناء، متعرضة لنفحات الله كي تكلأها وتحفظها من عوادي الزمن، وتقيها من الغير حتى ينبثق الفجر ويحمد الناس عقبى المآل.

كانت هذه النبتة وتلكم الزهرة وليدا نجيبا شب وترعرع في رحاب العز، وأشرب لبان أروع ثقافات العالم، واحتمى خلقيا بتعاليم دستور سماوي لن

---

(1)ـ تضمين لحديث نبوي شريف رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد عَنْ عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا).

ينقذ العالم الحاضر من مساوئه إلا هو، فألهمه كل ذلك، وأوحى إلى نفسه الكبيرة بأن ما عليه المسلمون اليوم من السقوط والهزال يمكن مداواته، فشرع يناضل ويكافح.

ناضل عن الإسلام وتعاليمه ولغته ومدنيته، وكافح خصومه والعاقين من بنيه.

كافح ـ شابا ـ طرق التعليم العتيقة فأنار السبيل لمن بعده، وكافح المؤلفات الضخمة يغربلها ليستخرج منها لب العلم فأفلح أيما فلاح. وكافح الأفكار الخرفة الخاملة فهزها هزا رد كثيرها على وجوه ذويها، فأصبحت ليست من الدين بعد أن ظلت أمدا طويلا تُحسب من الدين وهو منها براء. وكافح التقاليد البالية في الأسرة الإسلامية فأبان للناس أثرها السيئ في المجتمع، بعد سيادة دامت أحقابا وأحقابا. وكافح مشعوِذي الساسة وساسة الاستعمار كفاحا مرا لا هوادة فيه، ولا ابترد لنيران إيلامه أوار، حتى أوشك على الظفر المؤزر لاسيما في أواخر أيامه.

جال في كل ذلك جولة، وصال صولة، وراع دولة، وقوض سلطان سادة طالموا جرُّوا البلايا وساقوا الجموع إلى حيث الدنايا، وحيث حاق بهم مختلف الرزايا، ودونها ألما ـ أحيانا ـ مصافحةُ المنايا.

حالف الراحل العظيم أحلافا، وكون لحماية آثاره وأفكاره أخلافا، فنشأ نشؤه كفورا بالظلم، ناقما على الظلمة، أبيا لا يبيت على ضيم، رحيما بالضعفاء، شفوقا على الإنسان، غضوبا عند امتهان كرامته.

وكان خلفاؤه من بعده خلفاء صدق، وحماة حقيقة وحق في كل المواقف، وكانت مؤسساتهم كريمة نبيلة لم ترض الهوان ولا خضعت لجور سلطان، وهدمت وبنت، وقومت وعدلت، وأقامت وأقعدت، وخطت للسير أمثل الخطط وأقومها، ووضعت للعاملين برامج جريئة، وأعدت لكل كفاح عدته،

وشكلت له تشكيلة من الوسائل والحماة والأنصار، فنظمت الوسائل، ووضحت لكل من الحماة والأنصار ما له وما عليه من الحقوق والواجبات، وبصَّرت كُلاًّ عاقبةَ أمره.

والآن، وبعد كفاح مرير، تبين للقريب والغريب أن للجزائر شخصيتها وقوميتها، وأنها مسلمة وعربية، وتبين للسياسة والساسة في هذه البلاد أن يفكروا تفكيرا جديا جديدا، ويراجعوا أحكامهم ونظمهم، فانتهز الفرصة أحرار الديمقراطيين، وانضموا لصفوف المكافحين المسلمين، فكان للجزائر قضية، وكان لها مشكل عويص الحل، وشرع هذا وذاك وذلك يعرضون الحلول تلو الحلول وما وصل بعدُ فريق إلى حل نهائي وإن كابرت السياسة.

أجل، آمن الناس أجمعون ـ بعد ذلك ـ بأن باعث هذه الحركات كلها هو الراحل العظيم عبد الحميد بن باديس طيب الله ثراه، وأن حامي هذه الحركات كلها هو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعلى رأسها الخلفاء الأمناء الأبرار: محمد البشير الإبراهيمي، ومحمد العربي التبسي، ومحمد خير الدين، وأن هذه الجمعية تتمثل في مؤسساتها ومعاهدها وصحافتها ومعلميها وتلاميذها وأنصارها ذكورهم وإناثهم. وآمن الجميع بأن جمعية العلماء قد حققت كثيرا من أغراض الراحل بعد وفاته.

ومن خلَّف ما خلَّف عبدُ الحميد من الآثار، وخلف من خلف من الرجال الأطهار، فليحفظن الله آثاره، ويحققن الله أمانيه في الدنيا وفي الآخرة.

فانعم بالا شيخنا الفقيد، ونم قرير العين، واطمئن على مشاريعك، وطب موئلا في فراديس جنان الخلود، وسلام عليك وعلى أشياعك أحياء وأمواتا ويوم تبعثون ورحمة الله وبركاته.

محمد الغسيري

فهرس الكتاب

تقديم وتعريف بالمؤلف والكتاب.....06

نص الكتاب

تمهيد ومقدمات 29

الدولة الصنهاجية في إفريقية والمغرب الوسط 29

ظهور إمارة بني حماد.....31

العلاقات الجزائرية الفرنسية والاحتلال 35

المعاهدات بين فرنسا والجزائر 35

قناصل فرنسا تجار في الجزائر 36

العلاقات تسوء بين الجزائر وفرنسة.....36

القروض الجزائرية لفرنسة.....38

تاليران يقترح إنشاء مستعمرات في الشمال الإفريقي

وفي الجزائر بالذات 38

نابليون بونابرت يعقد هدنة مع دول المغرب.....39

الداي مصطفى باشا يطالب بديون الجزائر 39

احتلال الجزائر كان متفقا عليه من قبل.....40

تعيين بيير دوفال قنصلا لفرنسة في الجزائر.....40

القنصل دوفال وحادثة المروحة المزعومة 42

الدوافع الحقيقية لاحتلال الجزائر 43

الحملة الفرنسية وضخامتها 43
وصول الأنباء إلى الداي حسين 44
الجزائر المناضلة بعد الاحتلال الفرنسي 46
بدء النضال المرير ضد الغازي الجديد 46
الأمير عبد القادر الجزائري في الميدان 48
القائد بومعزة مع الأمير في الميدان 50
المحتلون يواجهون الجزائريين بعنف وضراوة 51
جنرالات الاحتلال يعترفون 52
أولاد سيدي الشيخ تحت قيادة محمد عبد الله وابنه سيدي
سليمان (1852 ـ 1872 م) 53
ثورات أخرى في الجزائر 54
ثورة المقراني والشيخ محمد بن الحداد (1869 ـ 1871 م) 55
المقاومة مستمرة 56
ما هي عوامل التنوع التي تدفع هذا الشعب للثورة على الدوام؟ 57
الجزائر تفقد أرضها 57
الاعتداء على المقدسات الدينية في الجزائر 60
اللغة العربية أجنبية في الجزائر 61
الأوضاع السيئة تدفع الجزائريين إلى الهجرة 62
الجزائر الجريحة تتلمس طريق الشفاء 65

الإمام عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) في الميدان 66
نسبه وأصله 66
مولده ونشأته وتعلمه 66
عبد الحميد يعود من تونس ثم يهاجر إلى الحجاز 68
عبد الحميد في الشام ومصر 69
عبد الحميد بن باديس في قسنطينة 74
لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها 77
بدؤه التدريس في قسنطينة 77
منهجه العلمي 82
صورة من النضال الفكري لعبد الحميد وتلامذته 85
ما أشبه الليلة بالبارحة 87
ابن باديس يعمل في صمت واعتدال 90
جهود ابن باديس سرعان ما أثمرت 90
عبد الحميد بن باديس المناضل الاجتماعي في الميدان 94
الكهول 95
صندوق للطلاب يعلن عنه 97
الشروع في بناء المساجد الحرة 97
عبد الحميد بن باديس الرائد 100
دروس للنساء المسلمات 101
دروس للعمال الجزائريين 102

دروس للشباب 103
من خصال ابن باديس 108
محاضرات عامة للشعب الجزائري في مدنه وقراه 108
العربية لغتنا 112
عبد الحميد وجمعية حقوق الإنسان 115
عبد الحميد بن باديس الصحفي 118
عبد الحميد بن باديس المربي المثالي 121
المعارف الفرنسية في الجزائر 124
التعليم الحر في الجزائر 127
إلى الرفيق الأعلى 130
في الذكرى الرابعة لوفاة ابن باديس 132
في الذكرى التاسعة لوفاته 136
الشيخ عبد الحميد بن باديس والكفاح الاجتماعي 136
فهرس محتويات الكتاب 141

تم بحمد الله عز وجل

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم، ذو أهمية بالغة، لأن مؤلفه كان تلميذا للمترجم له الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، بل لم يكنتلميذا عاديا من تلاميذه، وإنما أحد أخلص تلاميذه وأقربهم إليه، وكان ملازما له منذ أن انتقل إلى قسنطينة للدراسة على يديه سنة 1933 إلى حين وفاة الشيخ رحمه الله سنة 1940، أي مدة سبع سنوات.
في خلال هذه المدة نهل الغسيري الكثير من علم شيخه، كما أخذ من أدبه وأخلاقه، وعمل تحت إشرافه معلما في مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، وأدى مهام كثيرة بتكليف مباشر منه.
لذلك لا غرابة أن يكون كتاب الغسيري عن ابن باديس، كتاب عارفٍ سبَرَ الغورَ واطّلعَ على خفايا الأمور.
من خلال النظر في محتويات الكتاب والمنهج الذي سلكه الغسيري في تأليفه، يتبين لنا أن المؤلف رحمه الله أراد أن يؤلف كتابا شاملا عن أستاذه ابن باديس، ولذلك حاول أن يرجع إلى التاريخ العريق يستنطقه عن أصل الرجل ونسبه وتاريخ أسرته ومكانتها في المجتمع القسنطيني خاصة والجزائري عامة. كما رجع إلى التاريخ القريب، يكشف من خلاله عن العلاقات التي كانت بين الجزائر وفرنسا وكيف انتهت إلى الاحتلال، كما يتحدث عن الظروف التي ألمت بالمجتمع الجزائري منذ دخول الاستعمار الفرنسي والثورات التي قامت لتحرير البلاد، وينتهي من ذلك كله إلى تحديد الملابسات التي أحاطت بظهور ابن باديس وعملت عملها في تكوينه النفسي والديني والعلمي والوطني.
ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن شروع الإمام ابن باديس في العمل الإصلاحي، والمجالات التي وجه إليها اهتماماته، ويبين أن هذه الأعمال سرعان ما أثمرت نتائجها وآتت أكلها بإذن ربها، لما تميز به الرجل من إخلاص عميق وهمة قوية وعزيمة نادرة.

ISBN 978994776036-9

9789947760369